دار الهلال

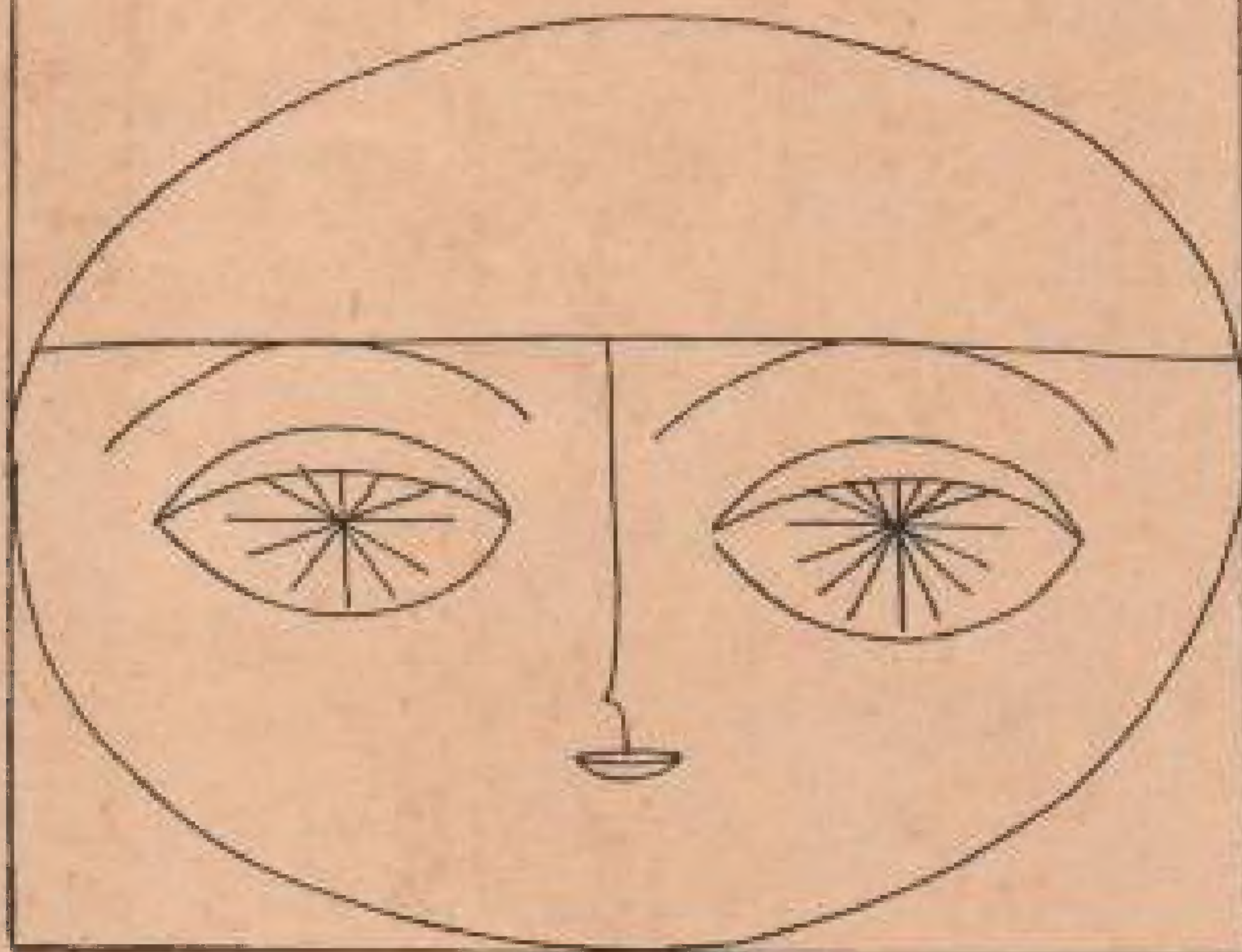


إحسان عبد القدوس

منتهى الحب

إحسان عبد القدوس

منتهى الحب



منتهى الحب

كانت قديسة .. او « شيخة » .. او ملاكا ..

وهى لا تدرى كيف اصبحت قديسة ، او « شيخة » او ملاكا .. كل ما تدريه انها منذ فتحت عينيها وهى تتطلع الى السماء .. ثم اصبح كل شىء تراه ، او تلمسه ، او تذوقه ، يذكرها بالله ..

لا .. لم تكن قد عرفت الله بعد ، او ذكرته .. انما عرفت الحب قبل ان تعرف الله .. احبت كل شىء .. احبت الناس .. واحبت البقر والجاموس والدجاج والكلاب .. واحبت الارض ، والزرع ، والطوب والحجر .. واحبت نغم الناى يزفره فلاح جالس هناك عند الساقية .. واحبت نقيق الضفادع وهى تقفز فى القناة القريبة .. احبت الحياة كلها .. احبت بكل قلبها الصغير الطاهر ، وبكل اعصابها الرقيقة المرهفة

***

وكان فى القرية صبى مجذوم مشوه .. تآكلت أنفه ، وسقطت اذناه ، وتمزقت اصابعه ، وانتشرت البثور والقروح فى جسده .. وقد تركوه مهملا يجوب الأزقة فى الليل ، ويختفى فى الحقول أثناء النهار ، ويصرخون فيه كلما لمحوه ليبعدوه عنهم .. ولكنها وحدها لم تكن تصرخ فيه ، ولم تكن تبتعد عنه .. كانت تلتقى به فى

الحقول لتلعب معه ، وتغنى معه اغنيات القرية ، وتحمل له تحت ثوبها طعاما تقدمه له ..

وكان فى القرية كلب اجرب ضال .. يقذفه الناس بالحجارة .. فبكت عندما اصابه حجر ، واسرعت اليه تربت على ظهره وتضحك فى عينيه المتاكلتين الجربتين .. ولم يعضها الكلب ، انما سار وراءها .. وجلست تاكل فدس فمه فى طبق طعامها ، فلم تغضب ، ولم تنهره .. ولم تتأفف .. انما ضحكت .. واكملت طعامها مع الكلب

وهرست عجلات النورج ساق فتاة .. فبكت ونزفت من دموعها بقدر ما نزفت الساق المقطوعة من دم .. ووهبت ايامها ولياليها لتعيد البسمة الى شفتى الفتاة .. وتعيد الروح المرحة الصافية الى قلبها .. وتعيد نور الامل وحب الحياة الى عينيها ..

هكذا كانت ..

لا تجد سعادتها الا فى سعادة الآخرين .. ولا تجد طريقها الا وسط المعذبين .. تكفكف دموعهم بدموعها ، وتوحى ابتسامتها الى شفاههم ..

***

ونامت ذات ليلة ..

ورأت فيما يرى النائم : ملاكا جميلا شفافا يهبط عليها من السماء ، ويرفرف حولها باجنحته فيلفها بهواء عذب عطر لم يملأ رئتيها مثله من قبل .. ثم سمعته يهمس فى صوت جميل كنغم الناى الذى يزفره الفلاح الجالس عند الساقية :

ـ ستدخلين الجنة ..

وكأنها سألته :

ـ كيف ؟

واستطرد الملاك :

ـ اذا وهبت حياتك للمعذبين !

واختفى الملاك .. ذاب فى النور الذى يحيط به .. وذاب النور فى الليل !

واستيقظت وبين شفتيها شهقة ، كأنها تحاول ان تلحق به ..

ومن يومها عرفت الله .. وعرفت الجنة التى يعدها بها الله .. ولم تكن تتصور الجنة الا فى صورة واحدة : عالم ليس فيه عذاب .. ليس فيه اطفال مجذومون . وليس فيه كلاب ضالة وليس فيه فقراء ، وليس فيه نورج يقطع سيقان الفتيات ..

ومن يومها وهبت نفسها للمعذبين .. وكان لها هدف : ان يتحقق الحلم ، وتدخل الجنة !

وقضت عمرها تعيش بين الدموع ، والانين ، والصراخ ، والحرمان ، والجوع .. لتحيلها الى صفاء ، وابتسام ، وشبع ومرح ..

وكانت روحها الحساسة تستشف العذاب فى كل مكان وفى كل انسان .. ان الناس كلهم معذبون .. حتى صاحب الارض معذب ، يعذبه طمعه وجشعه ، والداء الذى يفرى كبده .. والعمدة يعذبه حقده وشراهته والنقص الذى يحرمه من ان ينجب الاولاد ، والمأمور بكل سلطاته وهيبته ، معذب ، يعذبه تخطيه فى النقل وفى الترقية ، وتعذبه ابنته الكتعاء وولده الذى هرب من المدرسة .. الناس كلهم معذبون ..

وقال عنها الناس انها مجنونة .. !

ولم تأبه .. بل لم تكن تسىء الظن بالناس حتى تسمع ما يقولونه عنها ..

***

وشبت .. وبدأ الناس يقولون عنها انها قديسة .. أو شبحة او ملاك !

ولكن القديسة كانت قد تعبت من كثرة ما حملت من عذاب الآخرين .. ومن كثرة ما حرمت نفسها لتعطى الآخرين .. وبدأت قواها تنهار .. ضعفت ويبس عودها وتصلبت مفاصلها حتى لم تعد تستطيع ان تقوم او تقعد .. ظلت ممددة فوق فراشها الحقير !

ولم يعذبها المرض .. لم تخف .. ولم تتشبث بالحياة .. انما

اكتسى وجهها بالنور ، وعلت شفتيها إبتسامة كأنها على موعد لقاء انتظرته طويلا .. لقاء فى الجنة !

والتف الناس حول كوخها يبكون مرضها .. وجاء كل منهم يحمل اليها لونا من العذاب ، كأنهم اقتنعوا بان العذاب هو غذاء روحها .. هذه تحمل ابنها الضرير لتعيد اليه البصر .. وهذا المشلول يزحف اليها لتعيد الحياة الى اطرافه .. و .. و .. والكلاب الضالة .. والضباع الهائمة .. والعمدة .. وصاحب الارض .. كلهم جاءوا واختلطوا مع الناس حول كوخها .. وجاء الفلاح الذى يجلس عند الساقية يزفر فى الناى ، ليكون قريبا منها ، هو والناى ..

وهى لم تعد تستطيع الا الابتسام .. كانت ابتسامتها هى كل ما بقى لها لتهبه للمعذبين ..

وفجاة ..

وتلفت الناس بعضهم لبعض ..

وتدلت الدموع فوق الخدود فى موكب حزين ..

لقد ذهبت القديسة ..

صعدت الروح الطيبة الصافية الى السماء .. ولم تكد تجتاز فى صعودها القبة الزرقاء حتى وجدت نفسها تسبح فى بحر من نور ، واحاط بها موكب من الملائكة يغنون لها ويمرحون حولها وينثرون فوق راسها اوراق الورد واعواد الريحان ، ويقودونها فى الطريق .. الطريق الى الجنة ..

***

وانفتح فى السماء باب رات من خلاله عالما ازهى نورا ، واسمى جلالا ..

وسمعت الحانا جميلة .. اجمل بكثير من نغم الناى الذى يزفره الفلاح الجالس عند الساقية ..

وارتفعت أصوات الملائكة .. وانضمت اليها اصوات ملائكة آخرين .. أصوات حلوة وكلهم يغنون ؛ احلى بكثير مما تغنى ام كلثوم

ودخلت ..

دخلت الجنة ..

وجاء الانبياء والرسل والشهداء يرحبون بها .. كل منهم يشع نورا .. وكل منهم يباركها ويشيد باعمالها على الارض ..

وكانت مرحة .. تضحك .. وتغنى مع الملائكة .. وتاكل اوراق الورد كأنها فى حفلة اقيمت لها فى الجنة .. حفلة زفافها الى نعيم الخلود ..

وفجاة ..

سمعت شيئا كانه الأنين .. يأتى من بعيد !

وفركت اذنيها باصابعها كأنها تبعد عنهما هذا الطنين ..

ولكنها لا تزال تسمع نفس الأنين .. يأتى من بعيد !

وفتحت عينيها كأنها دهشة .. لا يمكن أن يكون فى الجنة أنين .. مستحيل .. ولكنها تسمعه .. وهى الآن تسمعه جيدا ..

وترددت كثيرا ، ثم لم تعد تستطيع ، فذهبت الى اقرب ملاك اليها ، وسالته فى خجل :

ــ الا تسمع شيئا غريبا ؟

وقال الملاك وهو يبتسم ابتسامة من نور :

ــ ماذا تعنين ؟

قالت فى تردد :

ــ انى اسمع شيئا كالأنين !

وارهف الملاك اذنيه كانه يتسمع ، ثم قال :

ــ نعم .. انه انين .. صادر من هناك !

قالت فى دهشة :

ــ من هناك !! .. من اين ؟

قال الملاك وهو يهز كتفيه :

ــ من الجحيم !!

وسكتت قليلا ، كأنها تفكر ، أو كأنها تراجع نفسها .. ثم صرخت قائلة :

— لا .. لا يمكن .. لقد قضيت حياتي على الارض لاواسي أصحاب الأنين .. وكان كل املي ان اصعد الى السماء حتى لا اسمع انينا ولا ارى معذبين .. انى لا استطيع ان احتمل .. لا استطيع ان احتمل هذا الأنين !

قال الملاك فى بساطة وابتسامته الحانية لا تزال فوق شفتيه :

— تستطيع أن تسد اذنيك فلا تسمعين شيئا !

قالت :

— لا يكفى .. سأسمعه بعقلي !

قال :

— اذن .. نلغى عقلك !

قالت :

— مستحيل .. سأسمعه بوجودى !

قال وهو لا يزال حلوا جميلا :

— اذن ماذا تقترحين ؟

قالت فى حدة :

— اقترح الغاء النار .. والعفو عن جميع المذنبين !

قال الملاك وابتسامته لا تختفى :

— هذه هى القوانين عندنا يا عزيزتى ..

قالت :

— ان القانون يقول ان الله غفور رحيم ..

قال :

— هذه مشيئة الله .. وله فى ذلك حكمة ..

قالت :

— لقد وعدنى الله بالنعيم .. ولا يمكن ان انعم فى الجنة ، وهناك من يتعذب فى الجحيم ..

قال :

— ستعتادين ..

قالت :

— لا .. اريد أن اذهب .. ان ..

وسكتت ..

وقال الملاك فى حنان :

— تذهبين الى أين ؟

قالت فى جد ، وفى عينيها تصميم :

— اريد ان اذهب الى النار .. ان اعيش وسط المعذبين !

وقال الملاك وكأنه لم يسمع شيئا غريبا :

— سترى !

وذاب فى النور .. ثم عاد بعد لحظات وبين شفتيه ابتسامة كبيرة طيبة :

— لقد اجيبت الى رغبتك .. ستنقلين الى الجحيم !!

وحملها الهواء عبر الجنة .. ثم خاضت فى سحب مظلمة .. ثم هب عليها هواء ساخن كصهد النار .. ثم وجدت نفسها عند باب الجحيم .. وهى لا تزال فى ثياب اهل الجنة ..

وفتح الباب ..

وانحنى لها حارس النار فى احترام كبير .. واشار يدعوها الى الدخول ..

ودخلت .. ثم نزلت فى درجات ودرجات .. تشق طريقها وسط ألسنة النار فلا تحرقها ، ويهب فى وجهها الهواء الساخن فيبرد ويلامسها لطيفا رقيقا كالنسيم .. وتخطو فى الحمم فتستحيل تحت قدميها لينة طرية كوسائد الحرير ..

والمعذبون من حولها يصرخون .. ويئنون .. ويستغفرون .. ولا تكاد تمر بواحد منهم حتى يسكت عن الأنين والصراخ ، ويفغر فاه دهشا ، ثم يتمتم « يا أرحم الراحمين » .. ثم لا تكاد تبتعد عنه حتى يعود الى الصراخ والأنين !

وانحنت تسند على صدرها رأس امرأة محروقة سقطت اعياء ..

ومدت يدها لتسكت عذاب شاب تجرى النار فى اعصابه مجرى الدم ..

ومزقت قطعة من ثوبها — ثوب الجنة — لتجفف من فوق صدر

عجوز عرقا كان قطراته قطع من الفحم ..
والتفت ملاك الى آخر وقال وهما جالسان فى خميلة من نور :
ـ صدق وعده .. انه غفور رحيم !
قال الآخر :
ـ انه لم ينس حتى اهل الجحيم ..
قال الاول :
ـ لقد ارسلها اليهم لتخفف من عذابهم .. كما كانت تخفف من عذاب اهل قريتها ..
قال الثانى :
ـ هل تعلم ، انها الوحيدة من اهل الجنة التى سمح لها بان تسمع انين اهل النار !
قال الاول :
ـ نعم .. هذه حكمته سبحانه وتعالى !
وفجأة بدت امامهما ..
انها هى .. عادت من الجحيم .. ولم يكن يبدو عليها اثر من رحلتها .. لم تلمسها النار .. ازدادت جمالا ونورا ..
وقال لها ملاك :
ـ لقد عدت .. هل غيرت رايك ؟
قالت وشفتاها ترتعشان بالنور :
ـ لا .. ولكنى وحدى لا اكفى لتخفيف المصاب .. اريد من يساعدنى ، وقد جئت لاصحب بعضا من اهل الجنة ، واعود بهم الى هناك ..
قال الملاك الآخر :
ـ مستحيل ..
قالت فى حزم :
ـ لا مستحيل عند المؤمنين ..
قال الملاك :
ـ كانك تنادين بالثورة ..
قالت بلا تردد :

ـ الرحمة حق ..
وشقت طريقها بين الملائكة ، وسارت فى الجنة الى حيث جلس فريق من الرسل والابرار .. وصاحت فيهم وهى على عجل :
ـ هنـــاك .. بجوارنا .. من يتعذب .. تعالوا معى نخفف العذاب ..
قال واحد منهم فى دهشة :
ـ عذاب هنا !! اين ؟
قالت وهى تشير باصبعها :
ـ هناك .. فى الجحيم !
وقال آخر :
ـ آه الجحيم .. لا بد انه بعيد .. بعيد جدا !
قالت فى حلاوة :
ـ لا يا اخ .. انه على بعد خطوات ، الا تسمع الانين ؟!
وصاحوا جميعا بعد ان ارهفوا السمع :
ـ اننا لا نسمع شيئا ..
وقالت وهى لا تزال على عجل :
ـ صدقونى .. لقد كنت هناك ، وعدت الآن ..
وتبادلوا النظرات .. نظرات حائرة فيها دهشة وتساؤل .. انهم لا يستطيعون ان يكذبوها فليس فى الجنة كذب ، ولكنهم لا يسمعون الانين ..
وقال واحد منهم :
ـ اننا نصدقك يا اختاه .. ولكننا لا نسمع انينا .. ونحن فى حيرة من امرك !
وركعت القديسة على ركبتيها ، ورفعت ذراعيها ، وهمست فى ابتهال عميق :
ـ ربى .. دعهم يسمعون !!
واغمضت عينيها كانها تحاول ان تصل بخيالها الى الله ..
وفجأة سمعت من يقول :
ـ انى اسمع شيئا ..
وقال آخر :

ـ نعم .. انه اشبه بالأنين ..

وقال ثالث :

ـ بل هو أنين ، يكاد يمزق قلبي ..

وقال رابع :

ـ كأني لازلت في الدنيا ..

وقال خامس :

ـ ليست هذه جنة مادام فيها أنين ..

وانتصب رسول ، وقال في صوت عميق :

ـ لنذهب يا أتقى البشر .. ان واجبنا يدعونا الى هناك ..

وقالت قديسة :

ـ ولكنهم مذنبون ، وقد وعدهم الله بالنار ..

ورد عليها قديس آخر :

ـ انهم اخوة في البشرية ..

وتجمعوا كتلا متراصة .. كل أهل الجنة .. وصاحوا في صوت رهيب دوى في جنبات النعيم :

ـ اغفر .. انك الغفور الرحيم .. انك القادر ..

وساروا يتزاحمون .. والقديسة أمامهم ، وقد عرفت الطريق ..

وفتحت لهم الأبواب ..

أبواب الجحيم ..

ودخلوها بسلام آمنين .. وتكاثروا فيها ، وكل مكان يشغلونه منها تنطفىء فيه النار ويكف الأنين .. وتعلو البسمات وجوه المعذبين ..

***

وقال الملاك لأخيه وهما جالسان في خميلة من النور :

ـ هل سمعت بالخبر ؟

قال :

ـ أي خبر ؟

قال الملاك الأول :

لقد صدر قرار الهي بالقاء الجحيم !!

بطولة صامتة

ذق جرس التليفون ، وسمعت صوته المليء القوى .. الصوت الذى تعود أن يأمر !

انه زوجها ، وهو يبلغها انه فى طريقه اليها .. لقد جاء من ارض المعركة فى اجازة مدتها اربع ساعات .. اربع ساعات فقط ، ثم يعود ! ..

ولم تدر ما تفعله فى هذه الساعات الاربع ..

لا .. انها تدرى ما ستفعله بالضبط .. ستستقبله فرحة ، وستخلع عنه ثيابه المغبرة ، وتنحنى لتشد من قدميه حذاءه الضخم ، ثم تعد له الحمام ، وتقدم له الطعام .. كل الاصناف التى يحبها .. العيش الملدن المبلول ودقية المسقعة .. وبعد الطعام ستلقى بنفسها فوق صدره وتدعه يعبث بأصابعه فى طيات شعرها .. انه يحب شعرها .. هل لديها وقت كاف لتذهب الى الكوافير .. لا .. ستكتفى بتمشيطه .. ثم ستسمع منه حكاياته .. حكايات القنابل والرصاصات التى اخطأته ، بينما هى تفكر فى القنابل والرصاصات التى قد تصيبه .. وقبل أن يتم حكاياته ستسمعه يقول كعادته وهو يطلق ضحكته الصاخبة التى تدغدغ اعصابها : « الدور ده حاخدك معايا الميدان .. مش ممكن اسيبك .. بدل

مايجيبوا لنا ممرضات ، كل واحد ياخد مراته معاه .. واهى تبقى ممرضة وخلافه .. وزيتنا فى دقيقنا .. ايه رايك » !

وقبل ان تقول رايها .. سينحنى ويقبلها .. قبلته التى لاترحم ؛ ولا تمل ابدا قسوتها .. ثم ستعطيه .. ستعطيه بسخاء .. كل ما عندها .. وسيعطيها كل ما ادخره لها فى غيبته عنها .. وشوقه اليها ! . . .

نعم .. انها تدرى بالضبط ما ستفعله فى هذه الساعات الاربع ..
ولكنها لا تدرى ما تحس به ..

كيف يستطيع الانسان ان يسيطر على احساسه لمدة اربع ساعات .. كيف يستطيع ان يبدو سعيدا لمدة اربع ساعات فقط !!

انها تحس كان الطبيب قال لها : هذه حقنة تعيد لك الحياة ، ولكنك ستموتين بعد اربع ساعات !!

هل تفرح لانه جاء .. ام تجزع لانه سيعود !

هل تحس بلقائه .. ام تحس بوداعه !

هل تحس بالشبع ام بالجوع .. بالامتلاك ام بالفقدان .. بالفرحة ام بالشوق .. هل تضحك ام تبكى !

ودق جرس الباب ، رنينا طويلا مستمرا ..
هذه عادته كلما دق جرس الباب ..

وهرعت ، ووقفت لحظة عابرة أمام الباب قبل أن تفتحه ، ريثما اجادت وضع ابتسامة كبيرة فوق شفتيها .. ثم فتحت .. ودون ان تنظر اليه ، القت بنفسها فوق صدره وتعلقت برقبته ..

وسمعت ضحكته الصاخبة .. واحست بشفتيه تطوفان بوجهها فى قبلات تطرقع كانها الزغاريد .. ثم رفعت عينيها اليه لتراه لاول مرة بعد عودته .. رفعتهما لحظة واحدة ثم عادت وخفضتهما ، وفى هذه اللحظة رات عينيه اللتين عاشت بينهما عمرها ، ورات شفتيه اللتين لا تمل قسوتهما .. ورات شعراته البيض القليلة التى تسرى فى فوديه كانها شعاعات من بياض قلبه ، ورات رجولته القوية التى تحتمى فيها لتجد الحياة والدفء .. رات كل ذلك

ولم تتكلم .. احست بانها لو تكلمت فلن تقول له « اهلا .. لقد عدت » ولكنها ستقول له « مع السلامة .. ربنا معاك » !

ودخل الى البيت واخذ يتطلع الى الجدران وقطع الاثاث كانه يقبلها بعينيه .. وهى بجانبه صامتة .. واحست فى صمتها كانها تائهة فى فراغ كبير تبرق فيه احاسيس من نفسها لا تكاد تلمع حتى تختفى .. واحست فى هذا الفراغ بغباء .. غباء شديد !!

ان ما يجب عليها الآن هو ان تقاوم هذا الغباء .. ان تستعيد ذكاءها .. ان تطرد من فوق شفتيها هذه الابتسامة البلهاء ، وتضع مكانها ابتسامة حية لها معنى .. وقاومت كثيرا .. بذلت مجهودا عنيفا .. ثم بدات تتكلم .. وبدات ابتسامتها تحمل معنى . . معنى كاذبا للفرحة ، يخفى وراءه هذا الفراغ الكبير الذى تحس به .. يخفى اللوعة والجزع وقسوة الفراق القريب ..

وخلعت عنه ثيابه ، وانحنت تنزع من قدميه حذاءه ، واعدت له الحمام ، وجلست معه على مائدة الطعام .. كل ذلك ، وهى تتكلم والفرحة المفتعلة فوق شفتيها .. وانتهى الطعام واستلقى على الاريكة ، وارتمت بين ذراعيه .. وامتدت أصابعه تعبث فى شعرها .. غريبة ، انها لا تحس به .. ان جسدها لا ينتفض كعادته كلما كانت بين ذراعيه .. ان تفكيرها فى فراقه قد غلب احساسها بوجوده .. ورغم ذلك فستعطيه .. كل ما يريد !

***

وبدا يروى حكاياته ..

ولم تستمر حكاياته طويلا .. سكت .. وتوقفت اصابعه عن العبث بشعرها ..
نام ..

واستغرق فى النوم كانه لم ينم طول عمره ..

وابتسمت فى حنان رائع وهى تنظر الى عينيه المغمضتين .. ثم تسللت فى هدوء من بين ذراعيه ، وقامت واتت ببطانية غطته بها .. ثم سحبت مقعدا وجلست بجانبه .. قريبة منه .. تنظر اليه ..

كانها تنظر الى شىء غال ثمين تملكه ، وعلى وشك أن تتبرع به ..
على وشك ان تهديه الى اناس أغلى وأثمن منه

ستوقظه بعد ساعتين ..

ومضت الساعتان وهو لا يزال نائما .. انه متعب من حقه أن ينام .. لتتركه ينام عشر دقائق أخرى .. وقامت واعدت له ثيابه وحذاءه وجواربه .. وفكت أزرار القميص ، ووضعت معجون الاسنان فوق الفرشاة ، لتوفر عليه دقيقة او دقيقتين ينامهما

واخيرا .. كان يجب ان توقظه .. وهزت كتفه برفق .. ثم اضطرت ان تهزها بشدة .. وهى تضع على شفتيها أكبر وأحلى ابتسامة استطاعت ان تجدها ..

وفتح عينيه ..

ولكنه لم ينظر اليها ..

نظر الى ساعته قبل أن ينظر اليها !!

ثم هب مذعورا وهو يصيح : « ياه .. انا اتأخرت قوى » ..

***

ثم قام ووضع نفسه فى ثيابه ، وقذف وجهه بحفنة ماء ، وحرك الفرشاة فوق اسنانه .. ثم تمنطق بسلاحه .. واخذ يجرى الى الباب .. وعند الباب استدار اليها ، وضمها فى عنف كأنه يريد ان يحملها بين ضلوعه ، وقبلها قبلة واحدة فوق شفتيها .. قبلة سريعة لم تقف حتى تستكمل قسوتها .. ثم ابعدها عنه ، ونظر اليها ، وقال كأنه يخاطبها بعينيه : « خدى بالك من نفسك » .. ثم جرى ينزل السلم اربعا اربعا .. قبل ان يسمعها تقول له « ربنا معاك » !

ووقفت فى النافذة تلوح له بيدها وهو يقفز الى السيارة الجيب

وابتعدت عن النافذة ..

لم يكن يبدو على وجهها تأهب لبكاء .. كانت تبدو جادة حازمة ، كأنها قررت ان تقاوم شيئا فى نفسها .. وتقاومه بعنف ..

وبدأت تشغل نفسها .. تنقل هذا المقعد من هنا الى هناك .. وتدخل المطبخ وتخرج من المطبخ الى غرفة النوم .. وتغسل الصحون ، وتترك الصحون لتغسل قطعا من الثياب .. وتترك الغسيل وتمسك بخيوط التريكو .. كانت تتحرك فى حركات عصبية سريعة .. كانت تريد أن تشغل نفسها عن نفسها ..

وستظل تشغل نفسها عن نفسها الى أن يعود اليها .. من الميدان ..

انها احدى بطلاتنا .. البطلات الصامتات .. الزوجات اللاتى ينتظرن ازواجهن حتى يعدن من ارض المعركة .. الى ارض السلام

البطل

عام ١٩٥٢ .. وكان يجلس فى بلدته يتابع أنباء معركة القتال .. لم يكن يتابعها بالتفصيل .. لم تكن له طاقة على قراءة المقالات الطوال ، او تفاصيل الانباء .. انما كان يقرأ العناوين الضخمة ثم العناوين الصغيرة ، ثم يلقى بالجريدة جانبا ، ويسرح .. وكان يستمع الى الانباء تذاع من محطة الاذاعة دون ان يلقى اليها السمع كله .. لم يكن يطيق أيضا ان يستمع الى صوت المذيع وهو يتحدث كثيرا .. كلمات كبيرة ضخمة ، لا يحتملها ..

ولكنه كان يحس بالمعركة ..

كان يحس بها فى صدره وفى فمه ..

وكان احساسه بسيطا .. ليس فيه تعقيد ولا تفاصيل .. مجرد احساس بان هناك معركة يجب ان يشترك فيها ..

ودون ان يتكلم .. ودون ان يودع احدا .. حمل فى يده حقيبة صغيرة وجاء الى القاهرة ..

وبحث عن مقر احدى كتائب الفدائيين .. اى كتيبة .. فلم يكن يهمه هذه الكتيبة أو تلك .. المهم ان يعطوه سلاحا ثم يذهب الى هناك ، الى المعركة ..

وقادوه الى مكتب احد المحامين ..

ووجد هناك الكثيرين .. وجلس بينهم يستمع الى كلام كثير ،

كلهم يتكلمون .. يقولون كلاما لا يمكنه ابدا ان يسمعه .. بل لا يطيق ان يسمعه ..

وسد اذنيه ، وسرح .. كعادته !

وانتبه اليه أحدهم وسأله :

ــ ماذا تريد ؟

ورفع اليه عينيه وقال فى كسل :

ــ اريد سلاحا .. اريد أن اذهب الى هناك !

وادار الآخر رأسه دون أن يجيبه ، وعاد يتكلم مع زملائه كلاما كثيرا لا ينتهى .. كلاما تطرقع فيه كلمات ضخمة .. وهو لا يطيق الكلمات الضخمة .. فعاد يسرح ، كعادته !



وبعد فترة طويلة التفت اليه واحد آخر وسأله :

ــ ماذا تريد ؟

وقال دون أن تتغير لهجته الكسولة :

ــ أريد سلاحا .. اريد أن اذهب الى هناك !

وابتسم محدثه ابتسامة لا معنى لها .. لعلها ابتسامة رثاء واشفاق .. ثم ادار رأسه واندمج فى حديث زملائه .. نفس الحديث الذى لا ينتهى !

وكاد الليل ينتهى ، عندما التفت اليه المحامى صاحب المكتب وكرر عليه نفس السؤال :

ــ ماذا تريد ؟

وأجاب كالببغاء :

ــ اريد سلاحا .. اريد ان اذهب الى هناك !

وادار المحامى رأسه وعاد يتحدث مع زملائه ، ومن خلال الحديث مد يده وفتح دولابا اخرج منه بندقية وعلبة رصاص .. ناولها لصاحبنا دون ان يلتفت اليه .. وهو لا يزال يتحدث مع زملائه ..

والتقط البندقية وعلبة الرصاص وفي عينيه فرحة .. ثم قام وذهب الى القتال ..

ولم يجد هناك شيئا .. لم يجد تنظيما .. ولا معسكرا .. ولا قائدا يقوده .. ولكنه وجد انجليز .. وبدأ يقتلهم ..

قتل كثيرا من الانجليز ..

كان يضع لنفسه خطط التسلل والتربص والانقضاض .. ثم يقتل ! ..

وبعد ايام كثيرة .. وكثير من القتل .. جرح .. اصابته رصاصة انجليزية في كتفه .. وزحف الى كوخ فلاح آواه وضمد جرحه ..

***

وعاد الى القاهرة يحمل ذراعه فوق صدره .. ومر على مكتب المحامي فاعاد اليه البندقية .. تركها عند الباب دون أن يسعى لمقابلة المحامي

ثم عاد الى بلده .. دون ان يحاول ان يبحث في الصحف عن تفاصيل الانباء ليرى اسمه بينها في سجل الابطال ..

انه لا يطيق قراءة التفاصيل .. ولا يطيق الاستماع الى صوت المذيع .. لا يطيق الكلام الكثير ..

حتى الحجر

لم يكن يعلم أن الاحجار أيضا تذبل .. وتموت !!

وقد كان يضع في اصبعه خاتما له فص كبير من حجر « الفيروز » الازرق .. وكان يعتز بهذا الحجر ويتفاءل به .. لم يخلعه ابدا من فوق اصبعه ؛ منذ أن اهدته له اكرم واطيب وارق فتاة أحبته .. واحبها !

ولكنه لاحظ ان لون الحجر اخذ يخفت .. اللون الازرق العاقي كزرقة البحيرة العميقة ؛ بدأ يخبو ؛ وتسري فيه خيوط صفراء كأنها الشعرات البيض في رأس عجوز ..

ومسح الحجر في كم سترته لعله يعود الى لونه .. ووضعه في الماء كأنه يحاول أن يفيقه من اغماءة .. ولكن الحجر ازداد اصفرارا .. وضعفا !!

وحمله الى الصائغ كأنه يحمل احب اعزائه الى الطبيب .. وفحص الصائغ الحجر من خلف العدسة المكبرة ؛ ثم رفع رأسه ونظر اليه وقال في صوت حزين :

ـ انه يموت !!

قالها كأنه يسأله : « لماذا قتلته » ؟!

وقال للصائغ وفي عينيه دهشة ولوعة :

ـ كيف يموت .. انه حجر ؟ !

وقال الصائغ كأنه يصف الداء :

ــ ان الفيروز حجر رقيق .. كزهرة البنفسج ، تقتله لمسة او لفحة هواء : او رائحة عطر عنيفه ، فيهرب منه لونه ، ويأخذ فى الاصفرار .. حتى يموت .. ينتهى .. يصبح شيئا اصفر يثير الشفقة !!

ونزل الصائغ وهو مشغوه ..

وبدا يحس احساسا عجيبا .. يحس كأنه هو نفسه يموت مع الحجر .. كأن اللون الاصفر الذى يسرى فى زرقة الحجر ، يسرى ايضا فى وجهه هو .. وفى شبابه !

***

وتذكر شبابه كله كأنه يودع الحياة .. لقد أحب صاحبة هذا الحجر .. احبها .. نعم .. ولكنها احبته اكثر من حبه ، وربما اكثر مما يستحق .. وقد كان هناك شىء فى نفسه لا يحتمل كل هذه الرقة التى يعبر عنها حبها .. وكل هذا السمو .. وكل هذا التفانى .. شىء فى نفسه يحن الى الطين .. الى السفالة .. وقد دفعه هذا الشىء بعيدا عنها .. بعيدا عن حبها .. والقاه فى حمم الجسد .. واصبح يخونها ، ثم اصبح يجهر بسفالته .. تركها تعلم انه يقضى لياليه فى المراقص ، ويحشر شبابه فوق الاجساد الرخيصة .. ثم بعد يكلف نفسه حتى مشقة اخفاء سفالته عنها ..

وكان دائما يحمل حجر الفيروز فوق اصبعه .. يحمله وهو فى المراقص ، ويحمله فى رحلاته فوق الأجساد ..

منذ متى بدا يلاحظ دبيب الاصفرار فى لون الحجر ؟

واجهد نفسه ليتذكر .. وتذكر .. ان الحجر بدا يموت منذ بدا يخون .. منذ بدا يمارس سفالته .. منذ ابتعد عن حبيبته بروحه وجسده !!

هل تعود الحياة الى الحجر .. لو عاد اليها .. لو كفر عن سفالته ؟ !

وذهب اليها يحمل الحجر فوق اصبعه وهو يزهو بآخر ما بقى فيه من لونه الازرق الصافى الجميل .. وطرق الباب .. وطل عليه وجه كالح ، صاح فى حدة :

ــ ماتت ! !

وشعر بأنه كأنه لا يسمع اذنيه .. ثم احنى رأسه كأن دموعه تشدها من فوق رقبته .. ونظر الى الحجر .. لقد اصبح شيئا اصفر باهتا .. مات هو الآخر !! ..

***

وسار فى خطى بطيئة كأنه يشيع جنازة فقيد عزيز .. وخلع الحجر من فوق اصبعه ودفنه فى احد ادراج مكتبه .. وبكى !! ..

الخادمة

عندما مد السيد الصغير يده الى خصرها ، لم تجفل .. انما تثنت فى دلال وهى تقول :

ـ يوه .. ايه ده يا سيدى !!

كانت قد تعودت خلال السنين الطويلة التى قضتها تخدم فى بيوت العائلات على تقبل غزل الاسياد حتى تربى لها ذوق خاص فى اسيادها .. كانت تخرج من بيت الى بيت لان السيد لا يعجبها ، او لانها ملت سيدها ، أو لانها رأت سيدا آخر اعجبها .. ورغم ذلك لم تطمع ابدا فى ان تكون أكثر من خادمة .. كل ما كانت تحرص عليه أن تشعر بانها انسانة !!

وهذا السيد الصغير كانت تنتظر مغازلته منذ اسابيع .. كان مدللا ، جميلا ، عربيدا ، وقحا ، سكيرا ، حشاشا .. ولكنه اهملها ، وطال اهماله حتى بدأت هى تتقرب اليه وتغريه .. وتمهد له الطريق !!

وفى هذا اليوم جذبها اليه فى عنف ووقاحة واستسلمت فى الحال ..

ومرت الايام وهى سعيدة به .. سعادة الخادمة بسيدها .. وربما تمنت فى خيالها لو كان اكثر رقة ، لو اعطاها شيئا من الحنان والحب .. لو حاول أن يلمس روحها كما يلمس جسدها

.. ولكن كل هذه الامانى كانت تتلاشى بمجرد ان يلمسها .. فى وقاحة !!

قال لها يوما فى برود :

ـ معاكى جنيه سلف .. انا مفلس !!

وقالت بسرعة دون ان تفكر :

ـ لا والنبى يا سيدى ما عنديش الا خمسين قرش !

قال :

ـ يعمروا .. هاتيهم وبكره ارجعهم لك !!

وجرت الى غرفتها ، وفكت عقدة منديلها الصغير واخرجت ورقة من ذات الخمسين قرشا عادت بها اليه ..

ووضع الورقة المالية الصغيرة فى جيبه دون كلمة شكر ، وقال فى لهجة آمرة :

ـ وطى تفضيلى الجزمه .. قوام احسن مستعجل !

وتكررت طلبات السيد .. وعرفت انه لن يلمس جسدها الا بالثمن ..

وبدأت اشياء تختفى من البيت .. قطع من النحاس .. وقطع من الثياب .. وزجاجات فارغة .. و .. و .. وعرفت الخادمة ان المرأة تستطيع أن تسرق وان تقتل لتعطى حبيبها ما يريد

واكتشفت السرقة ..

ووقفت سيدة البيت تصرخ فى وجهها .. وتطلب البوليس . وجرى السيد الصغير كتفيه ، وقال فى وقاحة :

ـ ماتزعليش نفسك يا ماما .. انتى عارفه ان كلهم حراميه !!

وكادت تعترف بكل ذلك امام ضابط البوليس

ولكن من يصدقها .. ومن يرحمها !!

ودخلت السجن !!

الآلة

كان يرفع « المدق » الثقيل ويهوى به فى قلب « الجرن » الحجرى كالآلة المنتظمة ..

وقد مضى عليه اربعة عشر عاما وهو آلة .. فمنذ اربعة عشر عاما قتل زوجته ، ولم يدر بالضبط لماذا قتلها . فقد كان يجلس أمام دكان البيوطى فى قريته . وحوله زملاؤه الذين يعملون معه فى التفتيش الكبير ، وخيل اليه أن واحدا منهم تفوه بكلمة تمس عرضه الذى يضعه امانة لدى زوجته ..

وثارت دماؤه لهذه الكلمة وحاول ان يمسك برقبة زميله ويخنقه .. ولكنهم حالوا بينهما .. فانصرف الى بيته والدماء الثائرة الحمراء لا تزال تغمى عينيه ، ونادى زوجته ، ورفع فأسه ، وقتلها ..

ولا يدرى كيف رفع عينيه عن الدماء التى تسيل تحت قدميه .. ولا كيف تسلل من القرية .. وخاض فى البلاد والقرى سنين طويلة حتى حط رحاله فى القاهرة .. ولا يدرى كيف أفلت من يد البوليس طوال هذه السنين ، فهو نفسه لم يحاول ان يفلت من يد البوليس .. لم يكن يتخفى .. انما كان يعمل مع الرجال بلا مبالاة .. عمل فاعل بناء ، وعمل حمالا ، وعمل بائعا سريحا لحساب التاجر الكبير ، وهو الآن يعمل دقاقا فى دكان العطارة ..

ولم يجد تعبا فى كل هذه الاعمال ، بل كان دائما محل رضاء من يعمل معهم .. فهو لا يتكلم ، ولا يتبرم ، ولا يتعب .. انما هو آلة .. مجرد آلة .. وربما تساءل البعض عن سر صمته ووحدته ، ولكن أحدا لم يعلم السر .. لم يعلم أحد انه عاش خلال هذه الاربع عشرة سنة ، وليس فى رأسه الا سؤال واحد : هل خانته زوجته ؟ .. هل فرطت فى عرضه ؟ ..

انه منذ قتلها وهو يبحث فى خياله عن واقعة يبرر بها جريمته ..

ومنذ اربعة عشر عاما وهو يستعرض شباب القرية فى خياله .. ويحاول ان يلصق بكل منهم تهمة انتهاك عرضه .. وكان خياله دائما يتركز من بين الشبان على حمدان .. لا يدرى لماذا ، ربما لانه انضجهم شبابا ، وربما لانه الوحيد فى القرية الذى يمتلك شالا من الشاهى يلفه احيانا فوق رأسه ، واحيانا يلقيه فوق كتفه ويخطر به امام نساء القرية ..

***

وكان يرفع المدق الثقيل ويهوى به فى قلب « الجرن » الحجرى .. كالآلة .. ووقفت عربة كارو تحمل بضائع لدكان العطارة .. ونزل منها حمال رفع على ظهره جوالا ثقيلا ، ودخل به ، ثم عاد مقوس الظهر الى العربة ليحمل جوالا آخر ..

ونظر اليه .. ودقق النظر .. انه حمدان !!

هذا الرجل المقوس الظهر ، هو حمدان !!

ورفع المدق الثقيل فى الهواء ، ونزل به على رأس حمدان .. وقتله ..

الأغا

رفع الطبيب الشاب رأسه عن صدر المريضة العجوز ، واغمض عينيه حتى لا يرى عقد اللؤلؤ فوق صدرها ، والدبوس الماسى المغروز فوق كتفها ، ثم قال فى برود :

ـ ماعندكيش حاجه ..

وصرخت المرأة المرفهة :

ـ ماعنديش حاجه ازاى يا دكتور .. انا مابانمش .. وقلبى مضطرب .. و ..

وقاطعها قائلا فى صوت اشد برودة :

ـ ماعندكيش حاجة !

ونظرت اليه فى احتقار من فوق انفها ، ثم اشاحت بوجهها عنه ، وخرجت وهى تدق الارض بقدميها وصفقت وراءها الباب فى عنف ..

وجلس وحيدا يدير عينيه فى غرفة العيادة الفخمة التى تحيط به .. فى الادوات الطبية اللامعة .. وفى آنية الزهر الانيقة .. وفى ادوات المكتب الفخمة .. وفى العدد الكهربائية الكثيرة .. وتذكر ايام زمان .. ايام كان طالبا .. وكان متحمسا هو وثلاثة من زملائه .. ولم يكن حماسهم للمشكلة الوطنية .. لم يشتركوا فى المظاهرات .. انما كان حماسهم للعلم .. ولصحة الشعب ..

وكانت ثورتهم على وزارة الصحة وعلى المجتمع كله ، الذى يترك الشعب مريضا ، يعالج المرضى بمرض ..

وقد تخرج ورحل الى الريف .. الى القرية الصغيرة .. وقضى هناك سنوات يعالج الفلاحين .. ولم يكن يعالجهم بالكهرباء والمساج .. ولا حتى بالانسولين ، ولا فى عيادة .. لم يكن عنده شىء من هذا .. كان يعالجهم بعلمه ، وبيديه ، وبادوية يصنعها بنفسه ، وكان يرقد بجانب مرضاه فى الزرائب ، وبين اقدام البهائم .. وكان سعيدا .. كان يحس انه رسول يصون الحياة التى وهبها الله .. وكان اجره قروشا ، واحيانا كيلة ذرة ..

الى ان التقى بابنة المالك الكبير سيد القرية .. وتزوجها ، لا لشىء الا لانه كان ضعيف الارادة .. واخذته معها الى القاهرة وافتتحت له العيادة الفخمة ، والبسته حلة انيقة يقابل بها مرضاه ، وجاءت له بالزبائن الشواذ .. انهم زبائن وليسوا مرضى .. كلهم لا يشكون من شىء الا الترف ، والدلع .. والمريض منهم حقا يذهب الى اوروبا

انه لم يعد طبيبا .. ولكن مجرد « آغا » لتسلية عجائز الطبقة الراقية !!

وفكر قليلا ..

ثم خرج الى سيارته الفخمة التى اشترتها له زوجته ، وقادها متجها الى القرية الصغيرة .. ولكنه مالبث ان غير اتجاهه ، وذهب الى مأذون الزمالك ..

وطلق زوجته ..

وترك السيارة الفخمة على باب القصر ..

وذهب الى القرية الصغيرة فى تاكسى ارياف ! ..

بداية عبيط

عاش بلا أم ..

ونشأ وفي قلبه جفاف ، وكان يحس بهذا الجفاف ويعانيه ..

كان عندما يرى أما تحمل ابنها في عربة الترام ، يحس بغصة ، ويحس بانكسار .. فهو لا يذكر أما حملته وهو طفل .. وعندما يرى أما تدلل ابنها وتعطف عليه وتهتم بشأنه ، يحس بلهفة تعصف في صدره وتكاد تفتت كبده .. فليس له أم تدلله وتعطف عليه وتهتم به ..

وقضى صباه ظمآن الى الحنان والحب .. وكان يحس بقوة جارفة تدفعه الى أمهات أصدقائه والى سيدات الحي ، فيجلس بينهن مخطلعا اليهن في استجداء كالكلب المسكين ، ينتظر أن تلقى اليه لمسة حنان أو لفتة حب ..

وكان دائما يحس برغبة جارفة تستبد به وتدفعه لأن يلقي بنفسه فوق صدر واحدة من أمهات أصدقائه .. وينام .. أو يبكي !!

ولكن أمهات أصدقائه لم يفسحن له صدورهن .. وسيدات الحي لم يطفئن ظمأه الى الحنان والحب .. كن لا يعلمن مدى ما يعانيه من حرمان ولا يفهمن سر العقدة النفسية التي تدفعه اليهن .. بل ربما كان بينهن من تحسده على النعم التي يوفرها له أبوه الثري الكبير ..

وظل الجفاف في قلبه ..

وظل ظمآن الى الحنان والحب ..

وبلغ السادسة عشرة من عمره .. والتقى بها .. سيدة وفدت الى الحي ، ولم يدر لماذا قاطعتها بقية الأمهات والسيدات بمجرد أن ظهرت بينهن .. لم يدر شيئا الا انها سيدة فقدت زوجها

***

وعندما التقى بها أحس في عينيها شيئا لم يحسه في عيون بقية الأمهات .. شيئا يدفئه ويرضي غروره ، وكان هذا الشيء موجه اليه وحده .. وحده دون بقية الصبية وبقية أبناء الحي .. ثم أحس بها تضفي عليه من اهتمامها وعطفها أكثر مما تسبغه أي أم على أي ابن .. كانت تسأل عنه اذا غاب .. وتعد له الهدايا الصغيرة .. وتجلسه دائما بجانبها .. وتلصقه بها .. وتمسح على شعره .. وتضغط على يده بيديها

وافسحت له صدرها ..

والقى برأسه على هذا الصدر في لحظة انتظرها طول عمره الأخضر ، وأحس بأنه يريد أن ينام فوق هذا الصدر .. أو يبكي !

ولكنه أحس بأنفاسها تتهدج ، وأحس بذراعيها تضغطانه بقوة أكثر مما يحبه .. ثم أحس بشفتيها المحمومتين تنقضان على شفتيه ..

وصاح وهو يتملص منها :

ــ لا .. لا يا طنط !!

وهمست كأنها تفح :

ــ يا عبيط .. هذا هو الحب !!

واستسلم ..

***

انه الآن شاب مرموق تضج القاهرة من مغامراته النسائية .. وعندما تحاول فتاة أن تتملص من بين شفتيه ، يفح هامسا في أذنيها :

ــ يا عبيطة .. هذا هو الحب !!

مهر ابنتي

كان المعرض الأول الذي يقيمه لصوره .. وقد كافح طويلا حتى استطاع ان يقيمه .. جاع .. وتشرد .. وخسر اعصابه كلها .. ليرى لوحاته معلقة أخيرا على جدران معرضه ..

ومرت ايام على افتتاح المعرض ، دون ان يفد كثير من الناس .. ولكن كان هناك رجل يجيء كل يوم .. رجل عجوز ، رث الثياب ، ترتسم اظافر الزمن على وجهه في اخاديد تاثيا « خرايش » امرأة غيور ..

ولم يكن هذا الرجل يتكلم ، أو يحاول ان يتعرف الى الفنان صاحب المعرض .. انما كان يدخل صامتا يسير في خطى خافتة كأنه يزحف في معبد مقدس ، ثم يقف امام لوحة بعينها ، لوحة اسمها « الأمل » .. ويقف طويلا .. طويلا جدا .. ثم يتلمس مقعدا يجلس عليه وهو لا يزال يحملق في الصورة .. ثم يتنهد كأنه يودع امله .. ويخرج ليعود في اليوم التالي ..

وجاءت سيدتان ذات صباح .. دخلتا وهما تتضاحكان في خلاعة . والقتا نظرة عابرة على اللوحات ، ثم وقفتا في وسط المعرض تتحادثان في صوت مسموع ، وتتضاحكان ضحكات صاخبة ، وتعزم احداهما على الاخرى بقطع الشيكولاته ..

وطال حديثهما .. وسمع طرفا منه .. كانتا تتحدثان عن حفلة

الأمس ، وعن الزوج المخدوع ، والزوجة الخائنة ، والعشيق الفاجر ..

ثم التفتت اليه واحدة منهما فجأة وقالت بلا مبالاة :

ـ اسمع يا .. الصورة دي بكام ؟!!

ونظر اليها من تحت جفنيه نظرة فيها سخرية ، وفيها استخفاف ثم قال في هدوء : بخمسين جنيه !! ..

قالت بدهشة :

ـ ايه .. مش معقول .. ده بيكاسو نفسه مايطلبش الثمن ده !! ..

وسكت برهة ، ثم قال وهو لا يزال محتفظا بهدوئه ، ولا يزال ينظر من تحت جفنيه نظرة فيها سخرية وفيها استخفاف :

ـ تحبي تعرفي انا طلبت التمن ده ليه .. شوفي يا ستي .. ياه اللوحات دي كلها زي بناتي ، وجبتهم في المعرض ده علشان اجوزهم .. كل لوحة مستنية عريس .. والجواز اما انه يكون جواز حب او جواز مال .. وحضرتك مابتحبيش اللوحة دي .. بدليل بصيتي لها بصة ، وماقدرتيش تبصي مرة تانية .. وهيه كمان مابتحبكيش .. فاذا حصل كده جواز .. يبقى لازم جواز مال .. لازم تدفعي خمسين جنيه مهر !!

ونظرت اليه في تعجب وقالت لصديقتها :

ـ ده باين عليه مجنون ؟ !! ..

وخرجتا ..

***

والتفت الى الرجل العجوز .. وكان لا يزال جالسا يحملق في اللوحة وقال في حدة : معاك خمسة وعشرين قرش ؟ !!

وارتبك الرجل العجوز ، وقال في تلعثم : ابوه بس .. ايه !!

وصاح بصحبته : هاتهم قوام ! ..

وفتش الرجل فى جيوبه ، ثم اخرج ورقة مالية كالحة ، قدمها اليه وهو يقول فى تردد : اقدر اعرف ايه السبب ؟!!

وقال الفنان وهو يضع الورقة المالية ذات الخمسة وعشرين قرشا فى جيبه : ده مهر بنتى .. مبروك !!

وشد على يده مهنئا ..

وعندما جاء الرواد فى اليوم التالى وجدوا بطاقة صغيرة معلقة فوق لوحة « الأمل » .. مكتوب عليها كلمة : « بيعت » !! ..

قصة حب

كتبت له وهى فى الرابعة عشرة من عمرها تقول :

انى احبك ..

لا تسألنى لماذا .. ولا تسألنى عما احبه فيك !! ..

فانا نفسى لا ادرى ..

بل انى لا اعرفك .. وقد احترت كثيرا فى معرفتك ..

احيانا .. يخيل الى انك رقيق كانفاس النسيم فى ليلة صيف .. حنون كحنو أمى ، حالم كخيال فنان .. مبتسم كالورد المتفتح .. تصفح ، وتغسل ذنوبى الصغيرة عن قلبى كما يغسل المطر اوراق الشجر .. وتبدو لى ابيض ينبع النور من حولك ، كانك فى ثياب ملاك تقود موكب الشمس ..

واحيانا .. يخيل الى انك قاسى كثورة بركان .. جبار كالزلازل .. لا ترحم ، حتى لتقبض على اعناق الزهر وتشد عليه بقبضتك حتى يذبل الزهر بين يديك .. فتضحك كانك تفرح بمنظر الموت .. ويخيل الى انك منتقم لا تصفح عن ذنب بل تقتلع المذنب كما تقتلع عواصف الخريف الاوراق التى عرمت دون ذنب جنته الا ان عمرها قد انتهى .. وتبدو لى فى هذه الحالة .. اسود كالضباب الكثيف ، متوحشا كالنمر الأعمى ، تسير فى موكب الرعد والبرق وتطأ الدنيا بقدميك وتحيلها الى اعواد يابسة محرقة

ولكني احبك ..
احيانا .. الجأ اليك واحتمي بك ..
واحيانا .. اخافك واهرب منك ..
ولكنى احبك ..
واحيانا .. اتمنى ان القاك حتى اعرفك اكثر ..
واحيانا .. العن اليوم الذى القاك فيه .. ولا اريده ..
ولكنى احبك ..
وارى حبك فى كل ما حولى ..
واناديك ..

عندما اسعد ..
وعندما اتعذب ..
احبك واناديك .. واريدك بجانبى لتحميني ولكن لاتقترب كثيرا فانى أخافك !! ..
هل يصلك خطابى هذا ؟ !!
لا شك ..
فانى متأكدة انك موجود !!

***

وطوت الخطاب بحرص كانها تطوى قلبها على سرها .. ووضعته فى ظرف ازرق انيق عطرته ببعض قطرات من عطرها المفضل .. ثم اعطته لامها وهى تودعها فى المطار قبل ان ترحل الى الاقطار الحجازية لتؤدى فريضة الحج !!

وكان العنوان المكتوب على الظرف : « الى ربنا » !!

والقت الأم الخطاب فى طاقة الكعبة ..

الغد

كان يخطو نحو بيته سعيدا مرحا ، وفى جيبه عشرون قرشا ، يقبض عليها بيده الخشنة كأنه يخشى أن تفر من جيبه ، ويلصقها بساقه خلال سيره كأنه يتدفأ بها .. وكان يترنم بأغنية : « .. وقالت تعالى حداى .. اسقيك براد الشاى .. حبك قطع لى حشاى .. يا ابو سته دهب لولى » !

وسكت عن الترنم فجأة ، واخذ يتذكر الاسابيع الطويلة الماضية التى قضاها بلا عمل .. كان يذهب كل صباح وينضم الى طابور « الفعلة » امام العمارة الحديثة .. وكان « الريس » يختار كل زملائه الا هو .. وكان يعرف السبب .. انه مريض .. هزيل .. ولم يكن حتى العام الماضى مريضا ولا هزيلا ، بل كان قويا جامدا كالصخر ، وكان دائما اول من يشار اليه لاستلام العمل

ولم يكن فى هذا الصباح يأمل فى ان يشير له « الريس » انما كان يقف فى الطابور بحكم العادة ، وبدافع الكرامة .. كرامته كعامل لا يزال فى استطاعته ان يعمل .. ولكن الريس اشار اليه .. ربما لان عدد العمال فى هذا الصباح لم يكن كافيا ..

وقبض العشرين قرشا آخر النهار ..

وعاد يترنم بأغنيته ، وهو يخطو نحو بيته .. وكان يعلم تماما ما سيفعله .. سيذهب الى الجزار ويشترى « رطل ونصف لحمة»

ثم سيشترى خبزة ــ انه يحب الخبيزة ــ ثم خمسة ارغفة من الخبز .. وسيحمل كل ذلك الى امرأته وولده

واتسعت ابتسامته وهو يتصور فرحة زوجته وولده عندما يدخل عليهما وبين يديه كل هذا الخير ..

ثم فجأة .. اختفت ابتسامته !

لقد تذكر شيئا .. تذكر الغد ..

نعم .. الغد .. هل سيحمل لهما شيئا غدا .. هل سيجد عملا غدا .. ؟!

وحاول ان يطرد صورة الغد من رأسه .. ولكنه لم يستطع .. واحس كان كل شيء فيه ينهار ويموت .. ولكنه ظل يحاول .. يحاول ان ينسى الغد ليعود اليه مرحه ، وتعود الاغنية الى شفتيه

***

وانحرف فى طريقه الى المقهى ، وطلب « تعميرة » اخذ يجذب دخانها بصدره الضعيف .. ولكنه لم يستطع ايضا ان ينسى .. ان ينسى الغد .. فنادى خادم المقهى ووضع فى يده عشرة قروش ، دون ان يتكلم .. وغاب الخادم ثم عاد يحمل شيئا صغيرا ، اخذه منه ووضعه تحت لسانه ، ثم طلب كوب شاى .. واربعة اكواب اخرى لزملائه المتفرقين على مقاعد المقهى ..

وبدأت صورة الغد تتلاشى ..

وقام يجر قدميه وسعاله الى بيته ..

واستقبلته زوجته : خير يا ابو اسماعين ! ..

واجاب من عالم بعيد :

ــ هه .. خير يا ام اسماعين !!

الوجه الجديد

لم يكن ابدا ابا رجعيا .. لم يكن متزمتا ولا محافظا .. بل كان يبيح لبناته مالا يبيحه كثير من الآباء .. كان يفسح امامهن باب التعليم الى آخر مراحله ، وكان يزودهن بالامل فى ان تكون كل منهن طبيبة او محامية او صحفية .. او .. او .. كان يوليهن دائما ثقته ، يبيح لهن الاختلاط فى الحدود التى يختارها ، ويبيح لهن مناقشته حتى ليعلو صوتهن على صوته ، ويتغلب منطقهن على منطقه ..

كان فى نظرهن ابا مثاليا ..

الى ان جاءت اليه صغراهن تعلنه انها قررت الاشتغال بالسينما .. ووجد شيئا فى نفسه يضطرب فجأة ويشتد فى اضطرابه كموج البحر ، ووجد نفسه يثور حتى تكاد ثورته تخنقه ، فيحتقن وجهه ويصيح فى صوت مبحوح كأنه يدافع عن شرفه وعن كرامته :

ــ لا .. مستحيل .. كله الا السينما !!

وصممت الفتاة على رأيها .. وتركته كأنها هجرته ..

واخذ يناقش نفسه فى وحدته .. لماذا يعارض ؟ .. لماذا لا تشتغل ابنته فى السينما ؟ ..

واجاب على نفسه كأنه يكذب عليها : ان الوسط السينمائى وسط موبوء .. وسط سافل .. ليس من كرامة ابنته ان تعيش فيه ..

سيغرر بها المخرج .. والمنتج .. والممثل .. وستنقلب الى امرأة محترفة توقع عقود العمل بشفتيها .. و ..

ولم يسترسل .. فقد وجد عقله لا يقتنع بهذا الكلام .. فكل وسط فيه السافل ، وفيه الصالح .. وكل ركن من اركان الدنيا فيه ملاك وفيه شيطان .. وما يمكن أن يحدث لابنته وهي تشتغل بالسينما ، قد يحدث لها وهي تشتغل محامية او طبيبة او صحفية .. بل قد يحدث نفس الشيء اذا اصبحت راهبة .. ان احتمال السقوط قائم في كل خطوة يخطوها الانسان ..



ورغم ذلك ـ رغم منطق عقله ـ فان هذا الشيء لا يزال يضطرب في صدره كموج البحر .. ربما لانه لا يحتمل أن يرى ابنته تمثل الحب امام الناس .. ربما لانه لا يطيق أن يراها على الشاشة وهي تقبل البطل .. او وهي في ثوب مكشوف .. او وهي ترقص .. او .. او ..

ورد عقله على هذا الكلام ايضا .. ان ابنته تبدو امام الناس على الشاطىء بالمايوه .. وهي ترقص السامبا والرومبا .. وهي تصاحب زملاءها الشبان .. وكل ما تمثله على الشاشة تقوم به فعلا في واقع الحياة

ولم يجد مخرجا للمعركة التي تدور في نفسه بين عواطفه وعقله، الا ان تعدل ابنته عن الاشتغال بالسينما .. وتريحه ..

ولكنها لم تعدل .. وبلغ من اصرارها ان هجرت البيت وذهبت تعيش مع عمتها ..

وعرض اول فيلم قامت فيه بالدور الاول ..

وتسلل في احدى الليالي الى دار السينما ليشاهدها .. وكان يعتقد انه سيرى في الفيلم ما يشعل ثورته الى حد أن يخرج ليقتلها .. ولكن لم تكد تمضي دقائق على عرض الفيلم حتى نسي انها ابنته .. وعاش معها في القصة التي تمثلها .. يبكي عندما تريد له البكاء .. ويضحك عندما تريد له الضحك ..

وخرج .. ورآها واقفة ، وقال له عقله : « تقدم اليها وقبلها واعتذر واطلب منها الصفح » ..

واضطرب الشيء الذي يسكن صدره : « لا .. لقد خرجت على تقاليد العائلة .. اننا لا نسمح لبناتنا ان يشتغلن ممثلات » ..

وحمل المعركة التي تدور في نفسه وسار وقد احنى رأسه الى الارض كأنه لا يراها .. وسمع صوتها تناديه : بابا .. بابا ..

ولكنه استمر في سيره !!

وهللت الصحف للوجه السينمائي الجديد .. ولكن واحدة من الصحف لم تذكر القصة التي تختفي وراء كل وجه جديد .. كل وجه سينمائي محترم .. عندنا .. في الشرق !!

الحب والصداقة

قالت له : ما أجمل صداقتنا ..

قال في هدوء : انها ليست صداقة .. انه حب !!

قالت : وما الفرق ؟ ..

قال : انه الفرق بين الارض والسماء .. ان الذين يعيشون على الارض يحتاجون الى الصداقة والذين يعيشون في السماء يحتاجون الى الحب ..

قالت : تقصد الحب الروحي ..

قال في حزم : اقصد الحب .. فحسب !!

قالت : اني لا اومن الا بالحب الروحي ..

قال : انك تخلطين بين الصداقة والحب .. ان الصداقة قد تكون احيانا روحيا فحسب .. فانت تستطيعين ان تصادقي كل الناس .. رجالا ونساء .. لان روحك تتسع لكل الناس .. ولكنك لا تستطيعين ان تحبي الا انسانا واحدا .. ويجب ان يكون رجلا .. لان في الحب شيئا آخر بجانب الروح .. لا يمنح الا لانسان واحد .. لرجل واحد !!

قالت : اني لا افهمك ؟ !!

قال : لانك لا تريدين ان تفهمي .. انك تخدعين نفسك !!

قالت : اني لا اخدع نفسي عندما اشعر بالسعادة معك .. السعادة بصداقتك !!

قال : انك لست سعيدة بصداقتي ، ولكنك سعيدة لأن هناك أملا يجمعنا نحن الاثنين .. أملا في لقاء لم يتم بعد ..

قالت : اي لقاء !!. اننا نلتقي كثيرا !!

قال : لقاء حب !!

قالت : الحب لقاء روحين !!

قال : وكيف تلتقي روحانا ؟ !

قالت : في فكرة .. في كلمة .. في ابتسامة .. و ..

قال : وماذا ؟

قالت في صوت خفيض : وامل ..

قال : امل اقوى من الفكرة .. والكلمة .. والابتسامة .. والصداقة !!

***

ولم تجب .. وارتعشت وجنتاها .. واسدلت جفونها فوق عينيها ، واشتد وجيب قلبها .. كأن شيئا سيحدث ..

واقترب منها ..

ولامست شفتاه شفتيها ..

وقالت وهي بين شفتيه : ان روحي تلتقي بروحك ..

قال : ان شفتي تلامس شفتيك ..

قالت : ان قلبي يخفق مع قلبك ..

قال : ان صدري يضم صدرك ..

قالت : لم اعد ادري .. اين جسدي .. واين روحي ؟ ..

قال : ذابا في الحب .. لم نعد جسدا .. ولا روحا .. اصبحنا حبا !!

الغلطة الأخيرة

كان دوره على المسرح لا يستغرق سوى دقيقتين .. ان يدخل الى عيادة الطبيب ، ويضحك في سخرية ويقول : « لقد وجدت اخيرا العلاج الناجع ، الذي عجز عنه الطب » ، ثم يخرج مسدسا من جيبه ، ويطلقه على رأسه .. ويموت .. ويبدأ الطبيب في سرد قصته التي تستغرق باقي فصول المسرحية ..

دور صغير ، لا يستغرق سوى دقيقتين .. يتقاضى نظير ادائه خمسين قرشا عن الليلة الواحدة ..

وقد كان في حاجة الى اكثر من هذه الخمسين قرشا .. كانت زوجه مريضة ، وابنه متشرد في الشوارع بعد أن طرد من المدرسة .. وصاحب الاجزاخانة ، والبقال ، وبائع اللبن ، وبائع العيش .. كلهم قد امتنعوا عن التعامل معه واخذوا يطاردونه .. وصاحب البيت انذره بالطرد ان لم يدفع المتأخر عليه .. و .. وهو في حاجة الى خمسين جنيها دفعة واحدة .. وحالا .. ليستطيع أن يستمر في الحياة ..

ومنذ اسابيع وهو يلح على مدير الفرقة أن يقرضه هذه الخمسين جنيها .. ولكنه يرفض .. لقد عمل معه خمسة عشر عاما طوالا ، وزامله في الايام السود والايام البيض .. ولكنه يرفض .. لم تشفع لديه زمالة السنين .. وهو لا يتعجب من رفضه .. لقد كان دائما

يرفض .. كانت هذه هي طبيعته .. الرفض .. ورغم ذلك فقد زامله خمسة عشر عاما .. ربما لأنه ضعيف الشخصية لم يستطع أن يحرر نفسه من هذه الزمالة او يثور عليها ، وربما لأن هوايته للفن كانت دائما تتغلب على ثورته ..

نعم .. انه من هواة الفن .. وهب عمره كله للمسرح .. ورغم ذلك فلم يكن نصيبه من الفن والمسرح سوى هذه الادوار الثانوية الصغيرة .. وتطور الفن واتسعت دائرته .. اصبحت هناك السينما التى تعطى الفنانين بالالوف .. ولكنه لم يتطور .. ظل مخلصا للمسرح في احلك ايامه ، مكتفيا بأدواره الثانوية الصغيرة

***

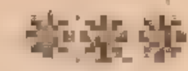
ولكنه يحس ان دوره في هذه المسرحية ليس صغيرا .. انه دور هام .. ان القصة كلها تدور حول الكلمة التي ينطق بها .. وهو يحس انه يتقمص هذه الشخصية كما لم يتقمص اى شخصية مسرحية من قبل .. يحس انه ينسى نفسه ، وينسى مشاكله ، وينسى زوجه المريضة .. وولده .. والبقال .. وصاحب البيت .. ينسى كل شيء بمجرد ان يدخل الى المسرح .. بل ان هذه الشخصية اصبحت تصاحبه يوما بعد يوم حتى خارج المسرح .. انه ممثل عظيم .. عظيم جدا .. وفي كل ليلة يحس انه يرتفع في عظمته الفنية ، وانه يقترب من حد الكمال الفنى .. يقترب جدا ..

***

وتسلل الى غرفة المدير قبل ان يحين دوره .. واخرج من درج يعرفه جيدا مسدسا ، ووضع مكانه المسدس المسرحى الذى يؤدى به دوره .. ثم خرج الى المسرح .. وكانت في عينيه نظرات ذاهلة .. وكان يسير في خطى بطيئة كأنه يزحف فوق السحاب .. وكانت وجنتاه مرتعشتين .. وشفتاه منهدلتين .. ووقف امام الطبيب في صمت .. وطال صمته .. وساد الجمهور نوع من الوجوم والترقب .. والرهبة ..

وارتفع صوت الممثل : « لقد وجدت اخيرا العلاج الناجع » ..

وانفرجت شفتا الممثل عن إبتسامة ساخرة مرة .. وقال فى كلمات بطيئة كأنه يبصقها فى وجه زميله : « لقد وجدت أخيرا العلاج الناجع »



وعاد صوت الملقن يهمس : « الذى عجز عنه الطب » .. وصمت الممثل اكثر مما يجب ، ثم قال من خلال إبتسامته المرة فى كلمات اكثر بطءا : « .. العلاج الذى عجزت منه الدنيا .. وغفر الله لى ، وتولى زوجتى وولدى من بعدى » !

وارتعشت يده قليلا .. ومد يده واخرج المسدس .. واطلقه على رأسه ..

وهمس مدير الفرقة فى أذن مساعده : « سوف المغفل هذا عارف يحفظ كلمتين يقولهم .. اخصم عليه خمسين قرش » !!

الليسانس

كان أبوها هو الوحيد بين أفراد عائلته الذى نزح الى القاهرة .. وأتم تعليمه ، ثم انخرط فى سلك القضاء وارتقى فيه حتى أصبح مستشارا ..

وتركها أبوها تتعلم .. ربما لأن الله لم يرزقه بولد فأراد أن يستعيض بها عن الولد .. اراد ان يراها تذهب الى المدرسة وتعود من المدرسة كما كان مقدرا لولده أن يفعل ..

وقد ذهبت الى المدرسة وعادت حتى اصبحت تذهب الى الجامعة وتعود منها ..

وكانت تستعد لنيل ليسانس الحقوق عندما تقدم ابن عمها يخطبها .. وابن عمها شاب لم يتم تعليمه ، وانما ترك الدراسة قبل أن ينال شهادة التوجيهية ، وتفرغ لزراعة أراضيه التى ورثها عن ابيه .. ونجح فى الزراعة حتى اصبح يدير أراضى العائلة كلها ..

وكان كل شىء حولها يحتم عليها أن تقبل الزواج بابن عمها .. وربما سألت نفسها : لماذا أختارها من بين بنات العائلة رغم ان العائلة كلها لم تكن تقر تحررها والتحاقها بالجامعة ..

ولكن هذا التساؤل لم يستمر طويلا .. ولم يصل بها الى حد أن تعتقد أن ابن عمها يريد ان يعوض نقصا فيه .. ان يتزوج فتاة من الجامعة ما دام هو لم يستطع ان يدخل الجامعة .. لم تفكر فى

شيء من هذا .. انما قبلت زواجه لانها كانت تريد الزواج ، ولانه لم يكن هناك شاب آخر في قلبها ولا في رأسها .. كل ما أصرت عليه هو ان يؤجل الزواج الى ان تنال الليسانس .. ورحب خطيبها باصرارها .. انه سيتزوج الليسانس الذى لم يستطع ان يحصل عليه !!

ونالت الليسانس بتفوق .. وتزوجت .. وذهبت تعيش مع زوجها وسط أراضيه باحدى مديريات الصعيد ..

واحتارت ماذا تفعل بالليسانس الذي حصلت عليه .. ان كل مافي حياتها الزوجية لايحتاج الى شيء مما درسته في الجامعة .. وزوجها يعاملها كامرأة .. كما يعامل ابوها امه ، وكما يعامل رجال البلدة كلهم زوجاتهم ، وهي لا تعترض على هذه المعاملة .. ولكنها فقط تريد ان تستفيد من الليسانس .. من هذه العلوم الكثيرة التي حشت بها رأسها ..

***

وفكرت ان تستغل علمها في الارتقاء بعقلية زوجها وتصرفاته وميوله .. ولكن زوجها لم يكن يشعر بنقص في عقليته ولا في تصرفاته وميوله ، حتى يقبل محاولاتها للارتقاء به .. بل انها هي نفسها اصبحت تؤمن بان زوجها رجل كامل بالنسبة للظروف التى تحيط به .. لا ينقصه شيء .. ولا يحتاج الى شيء من علمها ..

وعندما رزقت بولدها الوحيد .. عرفت انها الآن تستطيع ان تستغل علمها .. ان تستفيد من الليسانس الذى حصلت عليه بتفوق .. ستضع هذا العلم وهذا الليسانس في خدمة ابنها .. في تربيته وتنشئته .. في فتح ذهنه الى آفاق واسعة .. اوسع من هذه البلدة التى يعيشون فيها .. واوسع من هذه الآمال الضيقة التى تحصرهم

واخذت تصنع ولدها يوما بعد يوم .. وتسكب في اذنيه آمالها كلمة كلمة .. وجندت ثقافتها كلها لتكوينه في صورة الرجل المثقف الواسع الافق .. الرجل الذى يحمل ليسانس كالذى تحمله .. ويخرج به الى العالم الذى لم تخرج اليه

ويحب الولد ..

انه متعلق بابيه .. وهى قد عودته ان يحب ابيه ويحترمه ويجله .. فهذه هى ابسط القواعد العلمية في تربية الأطفال ..

ولكنه يزداد تعلقا بابيه .. انه يجلس معه دائما في المضيفة .. ويقرأ مثله « روايات الجيب » .. ويمر معه في الغيط .. ويأكل مثله باصابعه .. ويستعمل نفس كلماته .. ويشتم الفلاحين كما يشتمهم ..

وعندما انتقل الى المدرسة الثانوية بدأ يرسب ، ويتكرر رسوبه .. وقالت له في استجداء :

ــ انا عايزاك تكبر وتاخد الليسانس ..

قال في صوته الخشن .. صوت المراهق :

ــ اعمل ايه بالليسانس .. انا راجل .. زى ابويا !!

من النافذة

لم يكن في حياتها شيء قبل ان تراه .. وترى عينيه !

كانت تعيش كما تعيش معظم بنات مدينة الزقازيق .. في انتظار الزوج الذي يختاره لها اهلها ..

وقد جاء الزوج مبكرا ، قبل ان تتم السابعة عشرة ، ورضيت به لانها كان يمكن ان ترضى بأي زوج .. ولكنه تمهل في عقد قرانه . لقد كانت امامه مشاكل كثيرة يجب ان ينتهي منها قبل ان يتزوج .. وانتظرت في سكون انتهاء هذه المشاكل ، دون ان ترى منه الا هذه اللمحات السريعة ، والا هذه الزيارات الرسمية التي تجمع اهله واهلها ..

وفي هذه الفترة ــ فترة الخطوبة ــ رأته ، ورأت عينيه .. ساكن جديد في النافذة المواجهة لنافذتها .. لا يفصلها عنه الا عرض « العطفة » الضيقة ..

وتعلقت بعينيه في شبه ذهول .. لم يكن في هاتين العينين ما يخيفها ، ولا ما يجرح حياءها .. ولكن كان فيهما ما يجذبها اليه بعنف ..

وعاشت في عينيه ..

تنظر اليها وتنظر اليه ..

ثم بدا يبتسم ، فتبتسم ..

ثم بدا يشير اليها بيديه .. وترددت قليلا قبل ان تشير اليه بيديها ..

وكانت تفهم كل اشاراته .. كانت تفهم انه يطلب منها ان تلقاه فتعتذر آسفة ، فهي لا تخرج من بيتها ابدا الا مرة او مرتين كل شهر وبصحبة امها وفي حراسة رجل .. وكانت تفهم انه يريد صورتها فتعتذر لانها لا تستطيع .. لا تدري لماذا .. ولكنها لا تستطيع .. وكانت تفهم انه يريد منها ان تكتب له .. فاعتذرت .. انها لم تكتب خطابا ابدا ..

ثم فهمت من اشاراته انه يريد ان يتزوجها .. فلمعت في عينيها الدموع ، واشارت الى اصبعها لتقول له ، انها مخطوبة ..

***

واستمر كل منهما يعيش في عيني الاخر ..

كانت العطفة كلها تنام ، ويبقى هي في نافذتها ، وهو في نافذته ، حتى مطلع الفجر .. وكانت تطيل النظر اليه حتى تبكي .. بكت كثيرا .. وكان يبكي معها .. كأنهما يرويان الليل بالدمع حتى يزدهر منه الفجر ..

وهزلت حتى اصبحت كعود الورد بعد ان امتص الصيف ماءه .. ونحل حتى اصبح كالوهم البعيد ..

والايام تمر .. ومشاكل خطيبها تحل .. وهي تحس انها ستبتعد عنه .. عن نافذتها .. ستبتعد عن حبها قبل ان تلمسه .. قبل ان تحس بنبضاته .. قبل ان تشعر بدقته ..

انها تريد ان تلمسه ، ولو بطرف اصبعها ..

تريد ان تضع يدها في يده ..

تريد ان تحس حبها ..

***

ومدت يدها اليه من نافذتها ، ومد يده اليها .. ولكنها لا تستطيع ان تصل اليه .. فوقفت على حافة النافذة .. ووقف مثلها على حافة نافذته .. وتعلقت باحدى يديها في درفة الشباك ومالت

بجسدها الى الخارج وذراعها الاخرى ممدودة فى الهواء تحاول ان تصل اليه عبر « العطفة » الضيقة .. وتفعل مثلها ..

ومالت بجسدها اكثر الى الخارج ..

ولكن احدهما لم يصل الى الاخر ..

ثم مالت اكثر ..

ثم صرخت ، وهى تهوى من نافذتها الى ارض العطفة ..

وقالوا انها انتحرت ..

وعرف سكان العطفة ان الساكن الجديد قد انتقل من بيته .. ولكنهم لم يعلموا الى اين انتقل ..

الملاءة اللف

كانت حميدة ترفض ان تضع على وجهها « البرقع » وتلف جسدها « بالملاءة اللف » ..

كان يمكن ان تحتمل اى شىء فى حياتها .. الا البرقع والملاءة اللف .. !

كان يمكن ان تحتمل اى شىء فى حياتها .. الا البرقع والملاءة عملت منذ طفولتها خادمة فى بيوت الطبقة المتحررة .. كانت تعمل فى بيوت صغار الموظفين .. ثم اصبحت تعمل فى بيوت كبار الموظفين .. ثم لم تعد خادمة . انما اصبحت مربية اطفال .. تربى اطفال الطبقة الارستقراطية ، وتتقاضى مرتبا شهريا لا يقل عن ستة جنيهات ، ويرتفع احيانا الى تسعة ..

لقد صنعت كل هذا بذكائها وجهادها .. وتشربت من البيوت التى خدمت فيها مظاهر المدنية الحديثة .. وتربى لها ذوق نسائى رقيق .. اصبحت تقرا تفاصيل آخر الموضات على اجساد سيدات البيوت .. واصبحت تفرق بين انواع العطور .. وعرفت كيف تقص شعرها « شيشيو » و « ذيل الحصان » .. وكانت دائما تبدو فى ثوب انيق .. سواء كان ثوبا صنعته لحسابها ، ام ثوبا اهدته لها سيدتها ..

لقد ابتعدت كثيرا عن البيئة التى نشأت فيها ، والتى تفرض على البنات البرقع والملاءة اللف ..

الى ان تزوجت ..

تزوجت قريبا لها كافح مثل كفاحها حتى اصبح ينسدين بقهى صغيرا ، يزود موظفى المصلحة الحكومية المجاورة ، بالقهوة والشاى وساندويتش الفول ..

وكان يمكن ان تكون سعيدة بزوجها ، لولا انه اصر على أن تضع البرقع والملاءة اللف ، كلما خرجت من بيتها فى طريقها الى بيت مخدومها ..

ورفضت ..

ولكنه اصر .. انه لا يحتمل ان يرى زوجته تسير فى شوارع بولاق مكشوفة الوجه وفى ثوب يكشف عن ذراعيها ، وصدرها ..

وغطت ذراعيها وصدرها ..

ولكنه لا يزال يصر على البرقع ، والملاءة اللف ..

***

وغدا صباحها ومساؤها صراخا .. وكان يضربها احيانا .. واحيانا تهرب منه الى بيت اهلها وتبقى قبه الاسابيع الى ان يتوسط البعض لتعود اليه .. وكانت دائما تشكو للاسطى ابراهيم ، سائق السيارة فى بيت مخدومها ..

الاسطى ابراهيم .. الشاب الاسمر الطويل الانيق .. الذى يبدو دائما اكثر اناقة من سيدة ، والذى تحيطه ربة البيت برعايتها وكرمها ..

وواساها الاسطى ابراهيم ..

واصبحت مواساته حنانا ..

واصبح حنانه حبا ..

وفى احد الايام .. فى فترة بعد الغداء .. وكل من فى البيت الكبير نيام .. والجو حار .. والانفاس ساخنة .. والاجساد ملتهبة .. اصبح الحب خطيئة !

وعادت الى بيتها فى يوم خطيئتها وهى لا تدرى كيف تقابل زوجها ..

ووجدت نفسها تقابله بابتسامة كبيرة .. وتحتمل صراخه صامتة

.. وتنحنى تخلع حذاءه من قدميه .. وتقدم له سجادة الصلاة بيديها .. وتهتم بعشائه كما لم تهتم من قبل .. وتعطيه من حنانها ومن دلالها مالم تعطه أبدا ..

ونام الزوج سعيدا هذه الليلة ..

وفى الصباح .. فتح عينيه ليرى زوجته امامه وعلى وجهها برقع وحول جسدها الملاءة اللف .. وفغر فاه دهشة ، ثم تمالك اعصابه وقال وبين شفتيه ابتسامة واسعة :

ــ ما كان من الاول يا حميدة !

اجابت حميدة فى دلال :

ــ سماح بقه يا اخويا .. برضه الواحدة مصيرها تعقل !!

وزادت ابتسامة الزوج اتساعا ..

***

وذهبت حميده الى بيت مخدومها فى الصباح الباكر .. ودخلت الى غرفة الاسطى ابراهيم السائق .. وخلعت البرقع والملاءة اللف !!

مقاومة

كانت تعلم انها تحبه ..

وكانت تعلم ايضا انه لن يتزوجها ..

انه يحبها .. وربما كان حبه أعنف من حبها .. ولكنه زواجها .. مستحيل .. انه لا يستطيع .. وهى أيضا لا تستطيع !!

واختار عمرها الصغير الذى لا يتجاوز السادسة عشرة .. فى عمرها .. اختار بين عواطفها ومستقبلها ..

هل تقاوم حبها ؟ !

أم تعيش عينيها وتستسلم ؟

وقررت أن تقاوم .. لهذا الحب ليس له نهاية .. ولكن .. ان كل حب ليس له نهاية ، وليس له هدف .. ان الحب « حالة » مستمرة اقوى من النهاية واقوى من الهدف !!

ورغم ذلك يجب أن تقاوم .. تقاوم حالتها !!

وبدأت تقاوم على قدر ما يتيح لها عمرها .. كانت تتحدث طول النهار مع صديقاتها فى التليفون حتى لا تحادثه .. وكانت عندما لا تتحدث فى التليفون تقرأ قصصا تعيش فيها بعيدا عنه .. وكانت عندما تشتاق اليه ترسل الى ركن « ما يطلبه المستمعون » فى الاذاعة اسطوانة تذاع باسمها واسمه وتظل الاسابيع فى انتظار اذاعة هذه الاسطوانة ، كأنها فى انتظار لقائه .. وعندما تذاع يخيل اليها انها معه وانه يغنى لها ويناجيها ويخفف من لوعتها

وظلت تحبه .. وتتعذب من حبها المكبوت !!

وقررت ان ترضى بأى رجل يطرق بابها ليتزوجها .. فلعل الزواج يعينها على المقاومة !!

وتزوجت أول من طرق بابها ..

ثم اكتشفت انها لا تستطيع ان تعيش مع هذا الزوج .. انها تكرهه .. لا تتحمله .. ولكنها تخاف ان تطلقه ، فتعود لتواجه حبها الذى تتعذب فى مقاومته ..



وقررت ان تنتظر الى ان تحمل من زوجها .. ثم تطلب الطلاق ، وبعد ذلك تهب نفسها لمولودها ، وتنسى به حبها ..

وحملت .. ووضعت بنتا جميلة من زوج تكرهه ..

وطلقت ..

ووهبت نفسها لابنتها .. ولكن الايام مرت ، فاذا بها تكتشف ان ابنتها لا تستطيع ان تملأ حياتها .. وان حالة الحب لا تزال تلازمها ، اعنف مما كانت واقوى ..

وعادت تتكلم فى التليفون مع صديقاتها حتى لا تكلمه .. وتقرأ قصصا كثيرة تعيش فيها بعيدا عنه .. وترسل فى طلب الاغانى الى ركن « ما يطلبه المستمعون » لتعيش فى انتظار اذاعتها ..

ولم يكفها كل ذلك ..

كانت تحس فى كل لحظة ان مقاومتها تكاد تنهار .. وانها تكاد تذهب اليه وتستسلم !!

ولكنها ظلت تقاوم ..



بدأت تهرب من بيتها بحثا عن صديقات يبعدنها عن حبها .. ثم وجدت دائرة صديقاتها تنحصر فى « شلة » من المطلقات يحيط بهن جماعة من الشبان ..

انها تضحك كثيرا وسط هذه الشلة .. وتلهو كثيرا .. وهى فى حاجة الى مزيد من الضحك ومزيد من اللهو .. ثم مزيد من

الضحك ومزيد من اللهو .. ثم .. قادها الضحك واللهو الى الخطيئة !

وجلست تبكى خطيئتها .. ثم اكتشفت خلال دموعها انها لاتبكى خطيئتها .. ولكنها تبكى حبها .. الحب الذى تقاومه !!

ان الخطيئة لم تنسها الحب .. انه لايزال فى قلبها قويا عميقا .. ولا تزال فى حاجة الى مقاومته لعلها تنساه ..

وقادتها الخطيئة الاولى .. الى الخطيئة الثانية .. والثالثة .. والرابعة .. ثم لم تعد تستطيع .. لم تعد تحتمل هذا الضحك الاجوف .. وهذا اللهو الفارغ ! وهذه الخطايا القذرة ..

لم تعد تستطيع ان تقاوم ..

وقررت أن تستسلم للحب ..

***

وكانت فى الخامسة والعشرين عندما ذهبت تبحث عنه .. عن الرجل الذى احبته وهى فى السادسة عشرة ..

ولم تجده !!

الخاطئة

كان الثرى العجوز يلاحقها بعينيه منذ أن أصبحت نجمة سينمائية ..

وكانت تحتقره .. وتحتقر كل من يلاحقها .. كانت ترفع عن الهدايا السخية التى يغدقونها عليها .. وتترفع عن كلمات الاعجاب التى يملأون بها أذنيها .. بل انها اصبحت ترفع عن جمالها .. أصبحت تكره هذا الجمال الذى يراه الناس ، ولا يرون فيها غيره .. لا يرون شخصيتها .. ولا فنها .. ولا مبدأها .. لا يرون شيئا ولا يريدون شيئا الا هذا الجمال ..

ونظر اليها الثرى العجوز يوما وقال بلهجة تأكيد وهو يسخر من مبادئها :

— ستخطئين يوما .. ستنزلق قدمك .. كل اللاتى اشتغلن بالسينما انتهين الى الخطيئة .. وكلهن جئن الى !

وصاحت فى حدة :

— لا .. مستحيل .. لن تنالنى ولن ينالنى احد !!

واستطاعت أن تنتصر على كل من لاحقها .. انتصرت على الصحفى الذى اراد أن ينالها نظير الدعاية لها .. وانتصرت على المخرج الذى أراد أن يوقع عقدها بنفسها .. وعلى المنتج .. وعلى الممثل الاول .. انتصرت عليهم جميعا .. وظلت عذراء لم ينلها احد ..

الى ان التقت به .. لم يكن صحفيا ، ولا مخرجا ، ولا منتجا ، ولا حتى متفرجا .. كان مجرد شاب التقت به صدفة .. واحبته واحبها .. وسارا في طريق الحب حتى نهايته .. ثم خيرها بين الفن وبين الزواج ..

ولم تستطع أن تضحى بفنها ..

وضحت بحبيبها ..

وعاشت فنانة لحقتها الخطيئة .. خطيئة حب لم ينته الى زواج !!



وعاد اليها العجوز الثري وبين عينيه نظرة ساخرة ، وقال كأنه انتصر :

ـ لقد لحقتك الخطيئة ..

قالت :

ـ لم تكن خطيئة .. كان حبا !!

قال :

ـ لقد ذبحت حبك على هيكل الفن ، والحب عندما يذبح يترك وراءه دما اسود .. هذا الدم هو الخطيئة .. وهذا الاثر الذى تركه الحب فوق جسدك هو الخطيئة !!

قالت :

ـ لا ..

قال :

ـ انتها الفنانة الخاطئة .. سأتركك يوما ..

وتركها ..

وانكفأت تبكى .. وتتحسس مواضع اصابع حبيبها فوق جسدها !! ..

الزوجة الخائنة

كانت زوجة خائنة .. وكان لها ضمير لا يريد ان يغفر لها خيانتها !!

انها تحتقر نفسها الى حد انها تخاف ان تلمس اولادها حتى لا تلوثهم بخيانتها .. وتخاف ان ترفع عينيها الى زوجها حتى لا يرى فيهما آثار الخيانة .. تحتقر نفسها الى حد أنها لم تعد تنام ، ولم تعد تأكل ، ولم تعد تضحك .. كأنها لم تعد تستحق النوم ولا الطعام ولا الضحك ..

ولم تطق احتقارها لنفسها .. وقررت ان توقف خيانتها مهما كلفت اعصابها .. واكثر من ذلك ، قررت ان تعترف لزوجها .. ولعله يغفر ، ويريحها من العذاب الذي يصبه عليها ضميرها ..

ومرت شهور طويلة ، وهي طاهرة .. لا تقربها الخيانة .. وفي كل يوم كانت تقرر أن تعترف لزوجها .. ولكنها لم تكن تقوى .. كانت تخاف .. ربما قتلها .. ربما طلقها وهدم بيتها وفرق بينها وبين اولادها ..

واستطاعت اخيرا ان تتغلب على الخوف وان تعترف ..

اعترفت بكل التفاصيل ..

وسكت زوجها .. سكت اياما طويلة تركها خلالها ترقب صمته في حيرة .. فيما يفكر !

ماذا يعد لها ؟ لعله اشترى مسدسا يقتلها به .. لعله يسير في اجراءات الطلاق دون علمها !! ..

ومضت هذه الايام وهى تكاد تجن ..

لم تكلم زوجها ..

وان انه صفح !!

***

وحاولت ان تفرغ بصفحه .. وان تحمد الله ولكن فرحتها كانت باهتة .. كضوء مصباح خال من الزيت .. ما لبث ان انطفأ .. وحل محل الفرحة شعور آخر غريب .. لم تستطع ان تفسره في بادئ الامر ، ولكن شيئا فشيئا عرفت انه شعور الاحتقار .. ولم تكن في هذه المرة تحتقر نفسها ، بل كانت تحتقر زوجها .. الزوج الذى صفح .. لم يقتلها .. ولم يطلقها !!

واشتد احتقارها لزوجها ، حتى لم تعد تطيقه ..

وكان يجب ان تبحث عن وسيلة تقاوم بها هذا الشعور حتى تستطيع ان تعيش في بيت الرجل الذي تحتقره ..

ووجدت الوسيلة ..

عادت الى الخيانة !! ..

نصف الحقيقة

كان يعتبر نفسه من اشد الازواج ذكاء ..

وقد دله ذكاؤه على ان الكذب خطر ، وان الصدق مستحيل .. لم يكن يكذب على زوجته . فقد كان يخشى ان تكتشف كذبه في يوم ما .. وهى زوجة عنيدة عصبية لا تغفر ولا تصفح ..

ولم يكن يقول لها الصدق .. مستحيل .. انه لا يستطيع ان يقول لها انه زوج خائن ، وان له عشيقة ، بل عشيقات ..

واكتشف ان طريق السلامة هو ان يصرح دائما بنصف الحقيقة .. فلا هو صادق ولا هو كاذب .. انما هو دائما نصف صادق . ونصف كاذب !! ..

كان عندما يلتقى باحدى عشيقاته ، يعود الى زوجته ليقول لها انه التقى بفلانة في الشارع ، وحيته وحملته سلامها الى العائلة والاتجال .. ثم يخفى الباقى .. يخفى انه صحبها الى شقته الخاصة ، وعاشا هناك ساعات بين احضان الخطيئة ..

وكان يضمن بذلك الا تكتشف زوجته امره .. فلو صادف ولمحه احد من اصدقاء العائلة مع عشيقته وأبلغ زوجته ، فسيبدو امامها بريئا ، ما دام قد سبق ان اعترف لها بانه التقى بهذه المرأة .. وهكذا عاش ..

زوجا سعيدا .. وعاشقا سعيدا .. معترا دائما بذكائه ! ..

الى أن عادت زوجته يوما وقالت له ببساطة ـ بنفس البساطة التي تعود ان يقول بها ، نصف الحقيقة ـ انها قابلت فلانا فى محل « لاباس » وانه يبلغه سلامه ..

وجحظت عيناه كان حجرا سد زوره ، وقال :

ـ ماذا قال ؟ ..

ورفعت حاجبيها دهشة وقالت في فتور :

ـ يبلغك سلامه ! ..

وصاح في صوت اجش :

ـ ثم ماذا .. ماذا فعلتما .. اين ذهبتما ؟ ! ..

وادارت له ظهرها وقالت بلا مبالاة :

ـ كان لقاء عابرا ..

وسكت .. واخذ يتفرس في وجه زوجته بعينيه الجاحظتين كأنه مجنون .. كان يبحث فى وجهها عن شيء .. عن النصف الاخر من الحقيقة .. ولم يجده ..

بعد الموت

كانت تعلم ان ضعفها الوحيد : هو جسدها ..

هذا الجسد الذي ينبض ، ويحس ، ويرغب ، ثم يستسلم ، ثم ينهار .. عن ضعفها !!

وقد حاولت كثيرا ان تقاوم هذا الضعف .. ان تقاوم جسدها !

كانت تخاف أن يلمسها رجل حتى لا يثير فيها ضعفها ..

وكانت تخاف ان تقف امام المرآة حتى لا ترى جسدها .. ترى روعته ، واتساقه ، ونداوه !!

ولكنها كانت تريد أن تحب ..

كانت تريد الحب كما يصوره لها خيالها .. حب ليس فيه جسد ، وليس فيه ضعف .. حب فيه تفاهم ، ونجوى ، وحنان

كان خيالها بعيدا جدا عن جسدها ..

خيالها في السماء ..

وجسدها في الارض ..

وعاشت حائرة ، مسكينة .. كلما دفعها خيالها الى الحب ، ابعدها عنه خوفها من ضعفها ..

والتقت به ..

واحبته .. احبته بخيالها .. وجدت فيه النجوى ، والحنان :

والرقة .. والتفاهم .. وذهبت معه الى لقاء ..

ومد يده يضغط على يدها ، فاستسلمت وقد احست بجسدها يستيقظ ..

وقرب شفتيه من شفتيها ، فابتعدت عنه فى عنف ، وهى تصرخ :

ـ لا .. لا تقربنى .. ابعد عنى !!

وفتح عينيه دهشا ، وقال فى حنان :

ـ لماذا .. ماذا حدث ! ؟

قالت : حدثنى .. تعال نتكلم عن الأدب ، عن الفن ، عن الناس .. عن أى شىء !

قال : ان قبلتى حديث .. حديث عن نفسى وعن نفسك !

قالت : انه حديث سخيف .. انه حديث الجسد .. انك تريد جسدى .. كل الرجال لا يريدون منى الا جسدى !!

وسكت .. لم يتكلم ..

قالت : لماذا سكت .. تكلم !

قال : ان اى حديث بيننا غير حديث القبل سيكون حديثا مفتعلا .. سخيفا .. حديثا سيبعد احدنا عن الآخر .. وانا لا احب ان أكون مفتعلا ، ولا سخيفا ، ولا أن ابعد عنك ..

***

واقترب منها مرة ثانية .. ومال بشفتيه الى شفتيها .. وعادت تحاول أن تقاوم ، ولكن ضعفها انتصر عليها .. استسلمت .. انهارت ! ..

وتركته وقلبها يتمزق من الحقد .. الحقد على ضعفها ، وعلى جسدها ..

كيف تتخلص من هذا الضعف .. من هذا الجسد ؟

لا شىء يخلصها منه الا الموت !

اننا بعد الموت نكون ارواحا .. بلا اجساد !!

حب الثالثة عشرة

كانت تروى قصة حبها الأول لصديقتها :

ـ كنت فى الثالثة عشرة من عمرى ، طالبة فى مدرسة الليسيه .. وكان فى السادسة عشرة من عمره ، طالبا فى مدرسة مصر الجديدة الثانوية .. وكان يسكن بجوارنا .. فى البيت المقابل لبيتنا .. ورأيته فى الشرفة .. طويلا نحيفا اسمر .. لم عرفته عندما بدأت أتزاور مع شقيقته .. واحببته .. واحبنى ..

« كنت لا أذهب الى المدرسة الا بعد أن احييه من النافذة تحية الصباح .. وأعود لأبقى فى النافذة حتى احييه تحية المساء .. وفى كل يوم جمعة كان يخرج من بيته فى موعد ذهابى الى المدرسة ويسير معى فى الطريق .. نتحدث .. كنا نتحدث كثيرا .. لا أدرى من أين كنا نجد كل هذا الكلام .. ثم يتركنى عند باب المدرسة ويعود .. وكأنه اخذ قلبى معه ، واخذت قلبه معى ..

« وكنت أكتب على كل كتاب وكل كراسة الحرفين الأولين من اسمه واسمى .. وكنت اصنع خطابات على شكل قلب ، وارسلها اليه .. وكلما زارنا ضيوف اخفيت بعض قطع الحلوى ، ثم احمع ما اخفيه طول الاسبوع لأعطيه له عندما أقابله صباح يوم الجمعة .. وكان هو الآخر يشترى لى كل يوم جمعة قطعة من الشيكولاتة

.. ولم اكن آكلها ، بل كنت أحتفظ بها كتذكار .. وأخرج هذه التذكارات كل مساء لأنظفها واحميها من النمل ..

« وكنت ابكى اذا لم أره فى الصباح .. وابكى اذا تأخر فى الخروج الى شرفته فى المساء .. كنت ساعتها اعتقد أنه احب فتاة أخرى .. اما اذا لم اره صباح يوم الجمعة ، فانى كنت احن ، واقضى اليوم كله فى بكاء !

« وبقى حبنا عاما كاملا .. لم يمسسنى خلاله .. بل انه لم يضع يده فى يدى .. كان خجولا جميلا كالملاك .. ورغم ذلك فقد عرف الحى كله انه يحبنى ، وأنى أحبه » ..

وسكتت عن الكلام ..

وقالت صديقتها : وبعدين ؟ ..

قالت : عزلوا ..

وعادت صديقتها تقول : وبعدين !!!

قالت : باقولك عزلوا .. راحوا سكنوا فى جاردن سيتى !!

وعادت صديقتها تلح : ايوه .. فاهمه .. وبعدين ؟ !

وقالت وكأنها تتهم صديقتها بالغباء : وبعدين خلاص .. ماشفتوش بعد كده !!

جريمة

كان يحمل على راسه حملا ثقيلا من « الملوخية » ويطوف حوارى القاهرة وهو يصيح باعلى صوته « خضرة يا ملوخية .. »

وقد طاف طويلا هذا اليوم .. طاف بكل حوارى العباسية ، وانتهى منها الى الحسينية ، ثم عرج على الظاهر ، ثم عاد الى السكاكينى .. ..

ولم يبع شيئا ..

ان القاهرة التى تغرق كل يوم فى « حلة ملوخية » ، تقف اليوم على الشاطىء وترفض النزول الى البحر .. بحر الملوخيه ! ..

والشمس ترتفع .. وبدات تلسع وجهه وقفاه .. ثم ارتفعت اكثر وصبت جحيمها كله فوق نافوخه ..

وهو لا يزال يسير .. ويصرخ بكل ما بقى فى حنجرته : خضره يا ملوخية ! ..

واطلت امراة من الدور الخامس وصاحت :

ــ يابتاع الملوخية ..

ورفع راسه كانه يرفعها الى الله .. وعادت المراة تصيح فى غنج :

ــ يابتاع الملوخية .. اطلع !

وقاسى الأدوار الخمسة بعينيه .. ثم تنهد من أعماقه وبدأ يصعد الدرجات التي لا تنتهي .. ربما اشترت منه عشرة أرطال .. أن مكسبه فيها قرشان صاغ .. سيشتري بهما أربعة أرغفة من العيش تسد رمقه ورمق العيال .. ويكفيه هذا في يومه !

وحط حمله الثقيل أمام المرأة ، وسألته وهي تمسك بحزمة ملوخية وتلوي شفتيها تأففا .. سألته : بكام ؟

قال في استسلام : بسبعة مليم !

قالت : أربعة بس !

قال : يا ستي .. دي مسعرة !

قالت : باقولك أربعة مليم .. عاجبك ولا مش عاجبك !

قال : مايخلصكيش يا ست .. على اليمين ده أنا كسبان فيها مليمين !

قالت : بلاش .. يفتح الله !

وأغلقت الباب في وجهه ..

***

وأطل برأسه الى أسفل الدرجات التي لا تنتهي .. والتفت الى حمله الثقيل ليرفعه .. ولكنه عاد يطل الى أسفل السلم .. لماذا لا يلقي بنفسه الى الأرض .. ويموت .. وقرر فعلا الانتحار .. ولكنه عاد وتوقف ، ثم مد يده وتقر على الباب ، فأطلت عليه السيدة مرة أخرى وهي تقول : ما كان من الأول !

ولم يجبها ..

رفع الميزان الحديدي الذي يحمله ، وهوى به فوق رأسها ..

وسقطت السيدة في بركة من دماء ..

ووقف في هدوء ، ينتظر بوليس النجدة !

الندبة السوداء

أحبته طول عمرها ، بل لم يبدأ عمرها الا منذ أحبته ..

ورغم ذلك فقد فقدته يوما .. أخذته منها امرأة أخرى .. امرأة فرنسية عرفها في أوروبا أثناء احدى رحلاته ، وتزوجها هناك ثم عاد بها الى مصر ..

ولم يعش طويلا مع هذه الفرنسية ، فقد كانت امرأة غيورا لم تحتمل عاداته الشرقية وعقليته التي تفرض السيادة للرجل ، فقلبت حياته جحيما ، ثم انقلبت غيرتها الى جنون .. وانتهى جنونها الى أن أطلقت عليه الرصاص ..

رصاصة واحدة استقرت في جنبه ..

وقبض عليها .. وأسعفه الطبيب ، فنزع الرصاصة من جنبه ، وتركت مكانها ندبة سوداء ..

وطلقها ..

وعاد الى الفتاة التي أحبته طول عمرها ، بل التي لم يبدأ عمرها الا منذ أحبته ..

وقاومت نفسها كثيرا حتى استطاعت أن تغفر له خيانته ، وحتى تنسى المرأة الأخرى التي أخذته منها يوما .. وقبلت يده الممدودة اليها ، وتزوجته ..

وفى الليلة الاولى – ليلة الزفاف – رات الندبة السوداء ... تحت قلبه .. واتسعت عيناها .. وارتعشت شفتاها .. وغامت الدنيا من حولها ..

لقد رات المراة الأخرى ، فى هذه الندبة السوداء !

ولم تنعم بجسده هذه الليلة ..

ولم تنعم به فى اية ليلة ..

ان المراة الأخرى قد تركت آثارها فوق هذا الجسد .. كتبت اسمها عليه بالرصاص .. وهى تخشى كان هذا الجسد ليس ملكها .. كانها استعارته ، من المراة الاخرى ..

***

وحاولت ان تقاوم هذه الندبة السوداء .. كانت تدير راسها عنها كلما خلع ثيابه وجاء اليها .. ثم اصبحت ترجوه الا يخلع ثيابه ولكنها ظلت دائما تراها ، حتى من فوق الثياب

وانهارت اعصابها ..

اصبحت شبه مجنونة ..

انها تريد ان يخلص هذا الجسد لها ، ان تنظفه من كل آثار غريمتها .. او على الاقل ، تريد ان يكون لها فيه مثل ما لغريمتها .. تريد ان تكتب عليه اسمها هى الاخرى ..

وامسكت بالمسدس واطلقته عليه ..

واستقرت رصاصة اخرى فى كتفه .. نزعها الطبيب وتركت مكانها ندبة سوداء ..

واحست ان جسده قد اصبح لها ..

وعندما جاء رجال البوليس ، قال لهم انها رصاصة انطلقت خطا عندما كان ينظف مسدسه

عودة إلى القرية

كانت مشكلته انه يريد امراة .. اى امراة !!

لقد جاء من قريته منذ شهور والتحق بالجامعة ، واقام مع احد ابناء عمومته فى حجرة متواضعة بحى الجيزة .. ولم تكن هذه المشكلة تشغله وهو فى القرية ، فهو هناك ابن العمدة ، وتقاليد القرية – التقاليد المستترة – تبيح له الحق فى كثير من النساء .. حتى فى الفلاحات اللاتى يترددن على « الدوار » لمساعدة امه فى العجين وجلب الماء .. وحتى فى الفلاحات اللاتى يعملن فى الحقول فى مواسم الحصاد وجنى القطن وتنقية الدودة .. وحتى فى نساء الغجر ، ضاربات الرمل ، اللاتى يترددن على القرية من حين الى آخر ...

لا .. لم يواجه هذه المشكلة وهو فى القرية .. انه هناك السيد و « ابن العمدة » ، وتقاليد القرية تكفل له كل شىء حتى التفريج عن كبته .. ولكنه واجه المشكلة منذ وصل الى القاهرة .. كل هذا الزحام من حوله ولا يجد امراة واحدة .. او ربما لم يكن يعرف الطريق الى اى امراة .. والشهور تمر .. ودماء الصعيد الحامية تزدحم فى عروقه .. وفحولته تستبد به حتى يكاد ينقلب الى حيوان يعوى .. الى وحش !!

والشهور لا تزال تمر .. ولا يجد امرأة .. وهو يحس ان نفسه بدات تنعقد تحت ضغط الكبت .. انه ساخط دائما .. حاقد دائما .. ثائر دائما .. وبدأ يفرج عن نفسه بالشكوى .. بدأ يشكو لزميل له من اهل القاهرة .. وتعهد الزميل بحل مشكلته .. وواعده ذات ليلة ، وخرجا فى صحبة امرأتين ، واعطاه واحدة منهما

ونظر الى المرأة التى بجانبه .. الاصباغ التى تملأ وجهها .. لا .. ليست اصباغا .. انه شيء آخر فيها يجعله يحس بالحرج والضيق .. انها لا تنكس رأسها أمامه ؛ ولا ترخى عينيها .. انها لا تشعره بانه سيد .. بانه « ابن العمدة » .. بانه صاحب حق فيها .. انها تنظر اليه كأنها أقوى منه .. كأنها سيدته .. كأنها تحتقره .. كأنها تنظر الى حيوان عجيب ..

***

وانتابه ارتباك شديد .. احس أن فحولته تجمدت .. لم يعد يدرى كيف يتصرف ولا ماذا يقول .. ثم سمعها تقول لصديقة :

ـ ده صاحبك لحمه خالص .. باين عليه لسه خام !!

ولم يرد عليها .. انما تركها وترك صديقه فجأة .. كأنه يهرب ..

وسافر فى اليوم التالى الى قريته .. وقبل يد والده العمدة ، وصافح الجميع ؛ ثم دخل الى الحمام .. وسمع امه تصيح وراءه :

ـ يابت يا خضرة .. خشى ادعكى ضهر سيدك البيه ..

وابتسم ..

فراغ ..

قالت له ؛ وكأنها تحادث نفسها :

ـ ان حياتى فراغ ..

قال :

ـ وانا .. الا اشغل جزءا من هذا الفراغ ؟!

قالت :

ـ انك زوجى .. مجرد زوج طيب !

قال :

ـ وماذا تريدين اكثر من زوج طيب ؟

قالت :

ـ اريد شيئا عنيفا .. اريد أن تضربنى لأثور عليك فتحاول ان تسترضينى .. اريد ان امرض لاتألم فيأتى الطبيب واشغل حياتى بانتظاره وبانتظار مواعيد الدواء .. اريد أن تصدمنى سيارة وادخل المستشفى ، ويأتى الناس لزيارتى يحملون الورد وعلب الشيكولاتة .. اريد ان ارتكب خطيئة واندم عليها واشغل حياتى بالندم .. انى لم احس بالندم حتى اليوم .. تصور !

قال :

ـ احمدى الله ..

قالت :

ـ ان الله لم يخلق الانسان فراغا .. لقد خلق معه الالم والخطيئة والندم والحزن والغيرة .. و .. خلق كل هذه العواصف التي تخطر على النفس ليملأ فراغ الحياة ..

وسكتت قليلا ثم قالت :

ـ عندي فكرة .. ساخونك !

قال :

ـ يا مجنونة ..

قالت :

ـ لست مجنونة .. حاول ان تفهمني .. ان الانسان لا يستطيع ان يعيش على الماء الصافي .. انه يحتاج الى شيء دسم .. الى "دقية" دمية بالبصل والثوم والبهارات .. وهو يعلم ان « دقية » البامية هذه ستتعب أمعاءه ، لكنه يحتاج اليها .. وحياتنا الى الآن كالماء الصافي .. لا طعم ولا لون .. ونحن في حاجة الى « دقية » بامية .. ساخونك ليتعب ضميري واتعذب بالندم .. واعود بعدها الى الماء الصافي !

قال بعد فترة :

ـ عندي فكرة اخرى .. تجعل لحياتنا طعما ولونا !

قالت :

ـ ماذا ..

قال :

ـ ساخونك انا .. فهذا اسهل واسلم !

قالت وهي تضرب على صدرها :

ـ تخونني !! .. بعد كل هذا العمر يا خاين !

وبكت ...

أطفالنا

كانت في التاسعة من عمرها ، وكان في الثانية عشرة من عمره .. وقال لها يوما : احبك ..

ولم تفهم بالتحديد ماذا يعني ، ولكنها احست انه قال لها شيئا خطيرا .. شيئا محرما .. شيئا كالخطيئة .. واحست انها في حاجة ان تداري هذا الشيء عن الجميع .. واحست ايضا ان هذا الشيء قد ربطها به دون بقية اطفال الحي ، واثار في قلبها الصغير احساسا جديدا مثيرا ..

واصبحت تنتظره كل يوم .. وعندما تراه تشعر بوجنتيها تلتهبان .. واطرافها تتثلج .. وعندما تلعب لا تلعب الا معه ، ولا تلعب الا ما يأمرها به ..

وكانت سعيدة .. سعيدة وهي تنتظره .. وسعيدة وهي تلعب بجانبه .. وسعيدة وهي تطيع امره كأنه سيدها وربها .. وسعيدة وهي تشعر بوجنتيها تلتهبان واطرافها تتثلج ..

وعرف اطفال الحي بحبها البريء الصغير ..

وبدأوا يعايرونها به ، ويصيحون في وجهها باسمه كلما ارادوا اغاظتها ..

وبدأت تبكي ..

عرفت اسبابا جديدة للبكاء !!

ويلغت اثناء هذا الحب الى مربيتها .. وكانت تعلم انه حب عف اطهر من انفاس الملائكة ، ولكنها استغلته في تهديدها كلما أرادت منها امرا : اذا لم تنامي ساقول لأمك انه يحبك .. اذا لم تسكتي ساقول لامك .. اذا .. اذا ..

وكانت تفزع لمجرد تصور ان امها ستعلم بخطيئتها .. كانت ترضخ لأمر مربيتها وهي تتوسل اليها بدموعها الا تقول شيئا لامها ..

وتمادت مربيتها القاسية في استغلال تهديدها .. كانت تامرها ان تسرق لها ، وكانت تامرها أن تتستر عليها .. وهي ترضخ ، وتستسلم ، وتخاف .. الى ان ضاقت بنفسها .. ثارت في وجه مربيتها .. ودخلت عليها امها وهي ثائرة تسألها عما بها ، فصرخت الصغيرة وهي في نوبة ثورتها :

ــ باحبه .. أيوه باحبه ..

وقالت المربية وهي تتظاهر بوقع المصيبة :

ــ أيوه يا ستي .. بتحبه !

ورفعت امها كفها الثقيل ، وهوت به على خد الصغيرة ، وهي تصرخ : حبك برص .. !!

وسجنوها في البيت .. لم تعد تراه .. ولم تعد تشعر بوحشية للتيهان ولا باطرافها تتلج .. وتعودت ان تنزوي في غرفتها منطوية على نفسها .. ساهمة دائما .. مسكينة دائما .. كانت تعلم انها ارتكبت خطيئة ــ فهكذا يقول كل من حولها ــ ولكنها لم تكن تحس بالخطيئة .. لم تكن تفهمها .. كانت شيئا غامضا يربكها ويربك تفكيرها ..

ومرت السنون .. ونسيت قصة حبها الصغير .. ولكنها ظلت ساهمة دائما .. مسكينة دائما .. نحيفة لا تسمن ولا يمتلىء جسدها كان شيئا في اعماقها يأكل منها ويمتص من دمها ..

وعندما تزوجت ، اخذها زوجها الى طبيب نفساني ، فقد كانت عصبية غريبة الأطوار .. وبعد ان ألح الطبيب عليها طويلا .. روت له هذه القصة !!

عذراء

لم تكن عذراء ، ولم تكن سيدة .. كانت آنسة ليست عذراء !

ولم يكن المجتمع الفقير الذي نشأت فيه يلومها او يعتبر انها فقدت شيئا .. بالعكس كان هذا المجتمع يقدرها ويحترمها ويعجب بها ويعتبرها فتاة كاملة .. فقد كانت اجمل بنات الحي ، واذكاهن ، واجراهن ..

واستطاعت في سنوات قليلة ان تجعل من بيتها ارقى بيت في الحي .. اثاث جديد ، ومائدة زاخرة تحمل كل يوم طبقا من اللحم .. ثم استطاعت ان تنقل البيت كله من الحي .. من الحارة الضيقة المظلمة الى شارع واسع مشمس يسير فيه الترام !!

ورغم هذا فقد كانت ــ هي وحدها دون بقية المجتمع الفقير ــ تشعر بمرارة ترسب في اعماقها .. لأنها ليست عذراء !!

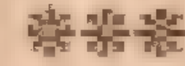
لم يكن طموحها يكتفي بالثياب الجديدة ، ولا بالحلي الثمينة ، ولا بالرجال الذين يلاحقونها .. ولكنه كان طموحا ابعد من ذلك .. كانت تريد ان تكون عذراء .. بنتا كبقية بنات العائلات !

وواصلت نجاحها مستندة الى ذكائها وجمالها وهي دائما تحمل المرارة في اعماقها ..

الى ان اشتغلت في السينما .. وعهد اليها بدور البطلة في فيلم بطلته عذراء .. واندمجت في دورها .. احست وهي تتحرك امام

الكاميرا وسط الأضواء انها فعلا عذراء .. وانها تخلصت من المرارة التي ترسب في اعماقها ..

وخرجت من الاستديو وهى لاتزال مندمجة في دورها .. تسير في مشية العذارى ، وتتكلم في خفر كما تتكلم العذارى ، وتحمر وجنتاها لكلمة اعجاب كما تحمر وجنات العذارى ..



ونجحت في دورها نجاحا باهرا .. ولاحقها المنتجون السينمائيون ولم تكن لها شروط الا ان يكون الدور الذى تمثله دور فتاة عذراء .. لم يكن لها شروط اخرى .. فقط ان تكون عذراء ..

واستمر نجاحها ..

واقتنع الجمهور بانها عذراء .. ثم اقتنعت هى نفسها انها فعلا عذراء !!

شيء واحد كان يحير الناس ، فقد كانت الاشاعات تنسبها كل يوم الى رجل تحبه أو توشك أن تتزوجه .. كل يوم او كل اسبوع او كل شهر تجد الاشاعات رجلا جديدا تنسبه اليها ..

ولم تكن مجرد اشاعات .. كان هناك فعلا رجال كثيرون ، وكانت لا تلبث ان تطردهم من حياتها الواحد تلو الآخر ..

كانت تطرد من حياتها كل رجل يكتشف أنها ليست عذراء ، ويقنعها بانها ليست عذراء ..

الضحية

كانت فتاة من عائلة متوسطة تؤمن بالشرف .. شرف البنات .. ولكنها عرفت ان الشرف وحده لا يمكن أن يكفل لها هذه المظاهر الفخمة التى تتمناها لنفسها .. وعرفت انها يجب أن تعيش بين الذئاب .. ذئاب يأتون من البلاد الشرقية المجاورة ويسحرهم اسمها وجمالها وفنها ، فهؤلاء الذئاب وحدهم هم الذين يدفعون وهم الذين يستطيعون ان يوفروا لها المظهر الفخم ..

ووضعت خطة بسيطة ، ولكنها كانت تقلع دائما مع الذئاب ..

وبطل الخطة هو اخوها الشاب المهذب الخجول الذى يبدو عليه التزمت والحرص على الشرف والتقاليد .. فكانت تصحبه دائما كلما ذهبت لملاقاة ذئب ، وكان بجانبها دائما كلما استقبلت في بيتها ذئبا ..

وعلمت أخاها كيف يمثل دوره .. كيف يتدخل دائما في الساعات الحرجة ، وكيف يغض بصره عن اللمسات العابرة ..

وكان كل ذئب يحاول ان يبعد أخوها عنها ليخلو بها .. وكانت تترك للذئاب هذا الامل .. الأمل في اختفاء اخيها بعد ساعة او ساعتين او غدا او بعد غد .. ومن خلال هذا الامل كان الذئب يدفع في سخاء ..

كانت كأنها تصارع الثيران .. تلوح للثور بجمالها حتى اذا ثار ،

وذلع ؛ ثم اندفع اليها اختبأت منه وراء أخيها ..

ووصلت الى ما تريد .. وقررت لنفسها المظهر الفخم ، واحتفظت بشرفها وبسمعتها النقية وحمدت الله ان لها اخا .. وجلا

الى ان التقت به .. لم يكن ذئبا ، ولم يكن ثورا .. ولكنه كان شابا تتمناه ..

وحاولت ان تبعد اخاها عنه .. ولكنه رفض .. فقد تعود ان يحميها ويحمي سمعتها

واستنجدت بكل حبها .. اصبحت تتمنى لاخيها ان يموت .. ان يختفي من الدنيا كلها لتخلو بحبيبها ..

***

واخيرا افلحت .. ضمنت أن البيت قد خلا من اخيها ، فدعت اليها حبيبها .. وجلست معه وراء باب مغلوق ، وروت منه شبابها، وانتقمت لانتظارها الطويل .. وعندما قامت وفتحت الباب فوجئت باخيها منحنيا فوق ثقب المفتاح ..

لم يكن ثائرا .. ولم يكن متحمسا لشرفها وسمعتها .. كان سعيدا ، كأنه مندمج في عمله اليومي ..

ورفعت كفها لتصفعه ..

ولكنها خفضت كفها قبل أن تصفعه .. ونظرت اليه والدموع في عينيها ..

انه ضحية ..

ضحيتها ..

ضحية الخطة البسيطة التي كانت تقلع دائما مع الذئاب !!

الأم

لم يكن لها زوج ، ولا اهل ، ولا أمل .. لم يكن لها أحد ولا شيء الا ابنتها ..

وقد عاشت كل دقيقة من عمرها لهذه الابنة .. عاشت لها بكل كيانها .. بكل احساسها .. بكل آدميتها .. كانت تعرف بالضبط كم مرة ابتسمت ابنتها في هذا اليوم ، وكم دمعة انهمرت من عينيها ، وكانت تستطيع ان تتلو عن ظهر قلب كل كلمة قالتها ابنتها منذ بدات تنطق ، وكأنها تتلو كلمات مقدسة ..

ثم حدث لها شيء عجيب .. لقد بدات تحس باحساس ابنتها ، نفس الاحساسات والانفعالات العاطفية والجسدية التي تطرا على ابنتها ، تنتقل اليها في نفس الوقت كأن بينهما اتصالا لاسلكيا .. اذا احست ابنتها بمغص احست هي بآلام المغص في معدتها .. اذا ضحكت ابنتها وجدت نفسها تضحك .. واذا بكت احست بالدموع تنهمر فوق خديها ..

لم تعد تعيش لابنتها ، بل اصبحت تعيش في ابنتها !!

وكبرت الابنة واصبحت في الثامنة عشرة ، واحبت .. واحست الام بكل عوارض الحب .. اصبحت تحس بفرحة ابنتها ، ولهفتها ، وحيرتها ..

وكانت الابنة تذهب الى لقاء حبيبها ، وتجلس الام في البيت

تتلقى على صفحة نفسها الاشارات اللاسلكية بكل ما يطرأ على الابنة في لقائها .. كانت تتلقى القبلات وتحس بها فوق شفتيها . وتتلقى اللمسات وتحس بها فوق جسدها ، وتتلقى الهمسات وتسمعها في اذنيها ..

واستيقظ جسد الأم باستيقاظ جسد ابنتها .. استعاد جسدها شبابه بعد العمر الطويل الذي قضته تكبت في هذا الشباب حتى اعتقدت انها خنقته وتخلصت منه الى الابد ..

استيقظ الجسد .. وبدأ يعذبها باحاسيس لا ذنب لها فيها الا انها احاسيس ابنتها .. !

***

وحدث بين الابنة وحبيبها ما يحدث بين المحبين .. تخاصما .. ولم يعد يريد أن يتزوجها ..

وقضت الابنة لياليها في فراشها تتعذب وتبكي .. وقضت الأم ليالي في فراشها تتعذب هي الاخرى وتبكي .. ثم اعتقدت ـ اى الام ـ انها يجب ان تفعل شيئا ، فذهبت اليه .. الى حبيب ابنتها ، لتقنعه بان يعود لابنتها ..

ووقفت امامه فاذا بها لا تجد في نفسها شخصية الأم ، بل وجدت في نفسها شخصية الابنة .. انها تحادثه بلسان ابنتها .. وقلبها يخفق كأنه قلب ابنتها .. وشفتاها تتطلعان الى شفتيه كأنهما شفتا ابنتها .. وجسدها ينتفض كأنه جسد ابنتها ..

ثم بدأت تحس أنها تريده .. تريد ان تلقى بنفسها بين ذراعيه .. تريده ان يقبلها ويأخذها ..

وحاولت ان تقاوم .. ان تستعيد شخصيتها .. شخصية الأم

ولكنها لم تستطع .. كل ما استطاعته هو ان فرت من امامه .. عادت الى البيت وألقت بنفسها فوق فراشها ، وصاحت من بين دموعها :

ـ يارب ..

عودة الشخصية

انه منذ أن تزوجها وهو لا يدرى ما به .. انه ضعيف امامها ، ولا يدرى سر ضعفه .. وقد اساءت اليه كثيرا ، ولا يدرى لماذا تسىء اليه .. لم تكن تحترمه ، ولم تكن تقيم لرأيه وزنا ، بل لم تكن تعتبر وجوده كسيد للبيت .. ولا حتى مجرد رجل في البيت .. لم تدع له شيئا في هذا البيت ، حتى اولاده لم تعودهم على احترامه ، ولم تمكنه من حقه عليهم كأب ..

لقد تزوجها كما يتزوج بقية الناس .. خطبتها له امه .. وقد بدأ حياته معها طيبا ، غاية في الطيبة ، وربما الى حد التغفيل .. كان يدللها ، وكان يطيعها ، وكان يصمت ليدعها تتكلم .. وقد استغلت هذه الطيبة وهذا الخضوع ، وسيطرت عليه .. وعندما حاول ان يقاوم سيطرتها .. لم يستطع .. كان الوقت قد فات !!

وكثيرا ما كان يجلس على المقهى وحيدا منزويا كعادته ، ويأخذ في مخاطبة نفسه : سأعود اليها الآن ، واصرخ في وجهها ، فان سخرت مني كعادتها ، سأضربها .. سأضربها بالقلم ، وبالشلوت .. لماذا لا اضربها ، ان الدين يخول للزوج حق تأديب زوجته .. الست زوجا !

وكان يتصور نفسه قد ذهب اليها فعلا .. فيقطب جبينه وهو جالس على المقهى ، ويطلق من عينيه نظرات غاضبة قاسية .. ثم

يتخيل نفسه يضربها ؛ فترتفع كفه ويضرب بها المائدة ..

ولكنه عندما يعود الى البيت يتلاشى .. يضمحل امام نظراتها وتهكمها .. ويصبح ضعيفا ، مستسلما ، كالفأر المسكين .. نعم انه ضعيف .. ضعيف في بيته .. وفي عمله بين زملائه .. وفي كل مكان ..

***

وكان جالسا على المقهى يستمع الى خطاب جمال عبد الناصر يعلن تأميم القنال .. واحس بشيء يثور في نفسه .. شيء لم يحس به من قبل .. واحس بهذا الشيء يملأ صدره ويسري في عضلاته فيحس بالقوة .. قوة لم يحس بها من قبل ..

وتمنى ان يستمر جمال عبد الناصر يخطب طول العمر ، ليحس بهذه القوة طول عمره .. ولكن خطاب جمال انتهى .. ونظر الى الراديو كأنه يرجوه أن يستمر .. ثم بدأ يحادث نفسه كعادته : « لو استطاع أن يكون قريبا دائما من جمال ، لشعر دائما بالقوة .. لماذا لا يعهد اليه جمال بشيء يفعله .. شيء يستمد منه هذه القوة التي احس بها .. شيء يشعره بانه رجل عظيم يستطيع ان يقوم بدور هام في شئون بلده » .. وسكت قليلا ثم قال لنفسه « هناك شيء » !!

وقام من على المقهى ، وذهب .. وقيد نفسه ضمن المتطوعين في الحرس الوطني !

واخفى الخبر عن زوجته ..

***

وبدأ يذهب كل يوم ليتدرب تدريبا عسكريا .. وعندما امسك البندقية بين يديه لاول مرة أحس أنه يستطيع ان يهزم بريطانيا وحده ... !

وعاد يوما الى البيت ، وهو في ملابسه العسكرية .. ملابس جيش التحرير .. وفي يده البندقية ..

ولم يتكلم .. انما كانت في عينيه نظرة جادة قوية .. نظرة

الجندي الوطني المكافح .. وكان في صوته خشونة الرجل المناضل

واستقبلته زوجته وبين شفتيها ابتسامتها الساخرة .. ولكنها ما كادت تقف امامه حتى اختفت ابتسامتها الساخرة .. وذهلت .. ثم نظرت اليه كأنه رجل جديد .. رجل لم تعرفه من قبل .. رجل قوي ..

وقال في صوت خشن :

ــ اعمليلي قهوة ..

وقالت في رقة :

ــ حاضر ..

وجاء اولاده ينظرون اليه والى البندقية في بهرة الاعجاب .. ان اباهم بطل !! ..

الآباء

جلست امام والدها وقد قطبت جبينها كأنها تجمع بين عينيها كل عنادها ، وكل حياتها ، وكل قوتها .. وقالت في صوت متحفز ليس فيه ضعف ولا بكاء ولا استجداء :

ــ انى احبه ..

وارتسمت نظرات دهشة على وجه الأب .. احس ان ابنته صفعته ؛ ولكنه لم يتألم من الصفعة انما دهش لها .. دهش لهذه الجرأة وهذه الوقاحة ، وهم بأن يصرخ في وجهها ويرد لها الصفعة صفعتين ولكنه تمالك نفسه وضغط على اعصابه بكل قوته ، وقال في هدوء مرتعش :

ــ منذ متى ؟

ــ منذ عام واكثر ..

ــ وكنت تلتقين به ؟

وقالت في جرأة :

ــ نعم .. كثيرا ..

ــ اين ؟

ــ في بيته !!

واحتقن وجه الأب ، ولكنه ظل متماسكا نفسه ، وعاد يسأل :

ــ في بيته .. وحدكما ؟

ــ لقد قدمتني الى شقيقاته .. وامه !

ــ هل قبلك ؟

ــ نعم ..

ــ ولم تخجلي .. لم يؤنبك ضميرك ؟ !

ــ لم اشعر بالخجل ولا بتأنيب الضمير .. شعرت بالحب !

ــ هل طلبك للزواج ؟

ــ سنتزوج ، ولكنه لا يستطيع ان يطلبني للزواج الآن .. انه لا يزال طالبا ؛ ولا يستطيع ان يعد لي بيتا ..

ــ هل اخبرت امك بكل ذلك ؟

ــ لا .. خفت الا تفهمني !

ــ ولماذا تخبرينني انا ؟

ــ لاني احترمك .. لدرجة انى لا استطيع ان اخفى عنك سرا ؛ ومقتنعة بك لدرجة انى واثقة انك ستفهمني وتفهم سرى ..

وسكت الأب قليلا كأنه يفكر ، ثم قال :

ــ هل استطيع ان اعرفه ؟

وانفرجت اساريرها ، واضاء النور وجهها ، وقالت في فرحة :

ــ نعم .. طبعا ..

ــ ادعيه لتناول الشاى معنا ، غدا ..

***

وجاء الفتى في الغد .. خجولا مرتبكا .. وجلس بين افراد العائلة كلهم .. الأب والأم والاخوة .. وكان الأب ينظر اليه متفحصا كأنه يبحث في صدره عن آثار الجريمة .. ولكنه لم يستطع ان يقنع نفسه بأن هناك جريمة او آثارا لها .. وابتسم وهو يجد أبناءه وقد انصرفوا الى الفتى في حديث طويل ..

واصبح صديقا للعائلة وحبيبا للابنة .. ثم تصادقت العائلتان .. الأب والأب .. والأم والأم .. والاخوة والاخوة ..

وبعد عامين .. تم الزواج !

الوعى

كان حسن عامل المطبعة يجلس الى المائدة الكالحة فى المطعم الصغير يتناول وجبة الغداء .. طبق الفول ورغيف العيش .. وكان ساهما لا يكاد يسمع شيئا من الضجيج الذى يحيط به ، ولا يكاد يرى وجوه زملائه الجالسين معه .. كان يفكر فى مشكلته الكبرى .. كيف يرفع أجره اليومى ؟

انه يتقاضى خمسة عشر قرشا فى اليوم .. وهو أعلى أجر يمكن أن يصل اليه على قدر عمله .. ليس هناك مطبعة اخرى تقبل أن تدفع له أكثر من ذلك .. ولكن هذا الأجر لا يكفيه ، ويجب أن يبحث عن وسيلة لرفعه ..

وقد فكر أن يعمل « ورديتين » فى اليوم بدلا من « وردية » واحدة .. أن يشتغل نهارا وليلا .. ولكنه بهذا يحرم نفسه من الحياة ، ويأخذ نصيب عامل آخر من زملائه ..

ولكن لو حدثت ازمة فى عمال الطباعة .. لو مات نصف عمال الطباعة حتى يرتفع أجره طبقا لقانون العرض والطلب . سيتهافت عليه يومها أصحاب المطابع ويتنافس كل منهم فى رفع أجره

ولكنه طرد هذه الأمنية من رأسه .. انها امنية شريرة .. أمنية تشعره بأنه مجرم يقتل زملاءه .. لا .. يجب أن يزيد عدد العمال .. أن يتضاعف عدد أعضاء النقابة ، ولو ضحى بأجره كله

وتعمق فى مشكلته أكثر :

يجب أن يعترف بأن عدد قراء الكتب فى مصر محدود .. والمطبعة التى يعمل فيها تخرج عددا محدودا من الكتب .. وتربح ربحا محدودا .. سواء أكانت المطبعة لفرد أم لشركة أو للدولة فسيبقى الربح محدودا .. وبالتالى سيبقى أجره محدودا ..

المشكلة اذن .. فى عدد القراء !!

ولكن كيف يرتفع عدد القراء ، ليصل الى مثل عدد القراء فى انجلترا وامريكا .. ولتخرج المطابع ملايين النسخ من كل كتاب !!

لن يرتفع عدد القراء الا اذا تعلم الناس .. العمال والفلاحون واستطاعوا أن يشتروا الكتب ! ..

ولن يتم هذا الا اذا أصبحت مصر دولة صناعية زراعية كانجلترا وامريكا .. مئات المصانع يعمل فيها ملايين العمال .. وملايين الأفدنة يعمل فيها ملايين الفلاحين .. فترتفع ارباح مصر وترتفع بالتالى أجور الفلاحين والعمال .. فيتعلمون ويشترون الكتب .. فترتفع ارباح المطبعة ، ثم يرتفع أجره ..

واستعرض حسن ما قرأه أخيرا فى الصحف وعاد يناقش نفسه

ان السد العالى سيوفر لمصر المصانع وأراضى زراعية جديدة ولم يعد هناك طريق لبناء السد العالى الا تأميم القنال .. ولكن بريطانيا لا تريد تأميم القنال وقد تعلن علينا الحرب .. وتكسحنا بجيوشها واساطيلها .. ثم لا يرتفع أجره اليومى !!

المشكلة اذا فى منع بريطانيا من التعدى علينا ..

مشكلة أجره اليومى ..

وانتهى حسن من طعامه دون أن يحس له طعما ..

وقام عائدا الى المطبعة .. وفى طريقه مر على المكتب المجاور وقيد نفسه ضمن متطوعى جيش التحرير ..

وهو واثق انه بذلك يرفع أجره ..

التليفون لا يكفي

كانت طالبة في « الساكركير » .. وكان يتبع بسيارته سيارة المدرسة كل مساء .. وعرفت انه يتبعها هي .. وكان أول شاب يتبعها !! ..

وبدأت تركب سيارة المدرسة كأنها ذاهبة الى موعد غرام .. كانت تتجمل ، وتعيد تسريحة شعرها ، وكانت احيانا ترى قرطا جميلا في أذن احدى زميلاتها فتقترض منها « فردة » واحدة تضعها في الاذن التي تطل على الشارع .. الاذن التي يراها وهو يتبع بسيارته سيارة المدرسة ..

واحبته .. احبته من بعيد !!

وعرفت زميلاتها بحبها ، وتطوعت احداهن فجاءت اليها باسمه ورقم تليفونه ..

وترددت كثيرا قبل ان تدق له التليفون .. ترددت ستة شهور ، كانت خلالها تراه كل يوم وهو يتبعها .. وتكره يوم الاحد لانها لا تراه فيه .. ثم تغلبت على ترددها ، ووقفت امام التليفون ومدت اليه يدا مرتعشة كأنها مقدمة على اثم كبير ، ثم اغمضت عينيها واستغفرت الله ، ورفعت السماعة وادارت القرص .. ثم سمعت صوته لأول مرة !!

ومرت شهور طويلة اخرى وهي تحادثه في التليفون دون أن

تقول لها اسمها .. ولكن اسمها لم يكن ضروريا ليعرف من هي .. وربما عرفها منذ اليوم الاول الذي حادثته فيه .. عرف انها الفتاة التي يتبعها كل يوم وهي في سيارة المدرسة ..

ثم قالت له اسمها .. وتعاهدا على الحب .. وطال حديثهما في التليفون ساعات ، كانت تستمر احيانا حتى الثانية صباحا ، وهي راقدة في فراشها مختبئة هي والتليفون تحت اللحاف ..

ومر عامان .. لم يلتقيا فيهما ابدا الا في التليفون .. كان شيئا اقوى منها يمنعها من لقائه ، شيئا في تربيتها وفي التقاليد التي تحيط بها ، وفي ايمانها بالشرف ، وفي خوفها من الله .. ولكنها كانت كأنها تلقاه .. كانت تعرف عنه كل شيء .. اين يذهب ، وماذا يأكل وماذا يقول ، ومن هم أصدقاؤه ، ومن هم اعداؤه .. كانت تعتقد انها تعرف عنه كل شيء .. وقضت ثلاثة شهور تصلي كل يوم مائة ركعة ، لينجح في الامتحان ويتزوجها ..

ونجح وجاء اليها خاطبا ، وتردد أهلها في قبوله ، ولكنه أصر .. وجلست تملأ عينيها منه لاول مرة .. انه يطابق الصورة التي رسمتها له في خيالها خلال احاديثها في التليفون .. ولكن صوته اجف قليلا من صوته في التليفون .. وفي شفتيه حركة عصبية ضعيفة لم تحسب حسابها .. وهو يستعمل منديله أكثر من اللازم يمسكه بين يديه ، ثم يمسح به وجهه ، ثم يضعه في جيبه ، ثم يخرجه ثانية .. لماذا لا يترك هذا المنديل في حاله ؟ !

ومرت الايام .. وهي كل يوم تكتشف فيه شيئا لم يصوره لها خيالها .. انه عصبي أكثر مما كانت تعتقد .. وهو يستعمل كلمات لم يكن ينطق بها في التليفون .. وهو يأكل كثيرا ، اكثر مما تريد له ان يأكل .. انه يكاد ينسى وجودها عندما يوضع الاكل امامه .. وهو يتجشأ عقب الاكل .. اف له .. لماذا يتجشأ ..

وقبل كتب الكتاب بأيام عرفت الحقيقة ..

عرفت انها لا تحبه ..

عرفت انها كانت تحب خيالا يحادثها في التليفون ..

ولم تتزوجه !! ..

القبعة السوداء

كانت تعتبر نفسها أذكى البنات ..

ولم تكن فى حاجة الى ذكائها الا لتدبير لقاء مع هذا الشاب او ذاك .. لقاء ليس فيه الا « شقاوة » بريئة ترضى بها غرورها ؛ وتملأ بها فراغ حياتها ..

وانتقلت العائلة الى الاسكندرية .. وخيل اليها هناك انهم قد خنقوا حريتها ..

كانت تجلس تحت الشمسية وفوق رأسها عيون أمها وخالتها واشقائها .. وكانت تسير على الشاطىء فى حراسة شقيقاتها ؛ وكانت تنزل البحر معهن ومع فريق كبير من الصديقات ..

كيف تهرب من كل هذا الزحام لتلتقى بهذا الشاب او ذاك ؟

وهداها ذكاؤها ..

كانت تنزل البحر وعلى رأسها قبعة جلدية حمراء (بونيه) تغطى بها شعرها ؛ وتقيه من البلل ..

وكانت الام وهى جالسة على الشاطىء ترقب هذه القبعة الحمراء تطمئن على ابنتها .. والشقيقات يرقبن القبعة الحمراء اذا ما ابتعدت عنهن داخل البحر ..

ووجدت ان الامر بسيط لتختفى عن كل هذه العيون ..

كانت تنزل الى البحر ثم تبتعد عن شقيقاتها وتخلع القبعة

الحمراء فلا يعود أحد يرقبها أو يراها !! ..

ولم تكن تخلعها طول الوقت .. بل كانت تخلعها دقيقة .. او دقيقتين أو خمس دقائق ريثما تتبادل مع شاب همسة أو لمسة ، ثم تعود وتضعها على رأسها لتطمئن عليها العيون التى ترقبها ، ثم تعود وتخلعها عندما يقترب الشاب منها .. وهكذا !!

واطمأنت الى هذه الخطة ..

ونجحت اسابيع متتالية فى محادثة اكثر من شاب ..

الى ان كان يوم ..

وما كادت تنزل البحر وعلى رأسها قبعتها الحمراء ، حتى أحست بتعب وشبه دوار ، فعادت وجلست تحت شمسية قريبة من الشاطىء مع بعض صديقاتها ..

وذهبت بعد فترة الى أمها ، فاستقبلتها متجهمة غاضبة ؛ ونظرت اليها نظرات فاحصة تكاد تمزقها ، ثم صرخت فى وجهها :

— من كان معك ؟

قالت فى دهشة :

— من تقصدين ؟

— هذا الشاب الذى كان يحادثك فى البحر ..

— أنا لم انزل البحر ..

— لا يا شيخة .. رأيتك بعينى ، وقبعتك الحمراء تكاد تلمس رأسه بجانب رأسك !

— وحياتك يا امى .. لم انزل البحر ..

— اخرسى .. ان مايوهك لا يزال مبتلا .. وقد رأيتك !!

— كنت مع صديقاتى تحت الشمسية .. اسألى !!

— من أدرانى بصديقاتك .. البنات كلهن ملعونات ..

— وحياة بابا .. وشرف النبى ..

— بس .. ولا كلمة .. لن تنزلى البحر بعد اليوم !

وبكت غيظا ..

ولم تكن تدرى أن هناك فتاة اخرى نزلت البحر وفوق رأسها قبعة حمراء !! ..

الغريب

التقى بها فى ايطاليا .. هى قادمة من بعيد ، وهو قادم من بعيد .. هى من الغرب وهو من الشرق ..

وكانت فى عينيها نظرات حزينة ، اشبه بالغمام الذى يسبق موسم الامطار .. وكان فى عينيه هدوء كهدوء الصحراء ينطلق فيه احيانا مرح متوهج .. ثم يختفى : كالسراب !

ووجدت نفسها عند أول لقاء تروى له قصتها .. كل قصتها .. كل التفاصيل .. وكل الاسرار ، حتى هذه الاسرار التى لا ترويها النساء .. وفجأة توقفت عن الكلام كأنها أفاقت من حلم ، وقالت له فى دهشة لا تخلو من حدة :

ــ لماذا اروى لك كل هذه الاسرار ؟

قال :

ــ انك لا ترويها لى ، انما ترويها لنفسك

قالت :

ــ ولكنك تسمعها !

قال :

ــ لا يهمك ان اسمعها لانى غريب .. غريب عن بلدك ، وغريب عن حياتك .. والانسان عندما يروى قصته لغريب فكأنه يلقى بها

فى البحر .. فهو مطمئن الى ان هذا الغريب لن يحاسبه ، ولن يستغل قصته !

قالت :

ــ هذا صحيح .. دعنى اتمها لك !

واتمت له قصتها حتى نهايتها .. ثم اعطته شيئا آخر .. اعطته جسدها .. وافرطت فى العطاء .. كانت كأنها تفرج عن كبت طويل مزعج .. كانت كأنها تحطم من حولها قضبانا من الحديد .. قضبان المجتمع ، والتقاليد ، والدين .. قضبانا نصبها حولها الآباء والاجداد والناس ..

وقالت وهى بين ذراعيه وجفونها المرهقة قد استرخت فوق عينيها :

ــ لقد اعطيتك الكثير .. اتدرى لماذا ؟

قال :

ــ لماذا ؟

قالت :

ــ لانك غريب .. ان المرأة عندما تعطى جسدها لغريب تحس انها تلقى به فى البحر !!

قال :

ــ ربما ..



وعاشا معا اسابيع .. لم يعد يربطهما الجسد وحده ، اصبح هناك شىء آخر يربطهما .. جمال الافكار التى يتبادلانها .. ثم حانت ساعة الفراق ، وقالت وهى ترفع رأسها من فوق كتفه :

ــ انى اشعر كأنى احبك .. اتدرى لماذا ؟

قال :

ــ لماذا ؟

قالت :

ــ لانك لا تزال غريبا عنى .. ويخيل الى ان حب الغرباء ارقى صنوف الحب .. لقد عشنا معا بلا مجتمع يعرفنى ويعرفك ويخضعنا لاوامره ونواهيه .. عشنا بلا مشاكل ، وبلا نقاش ..

فكان حبنا بلا مشاكل ولا نقاش ، في مجتمع يثير من حولنا المشاكل والنقاش ..

قال : « ولكن .. ! »

قالت تقاطعه :

ـ لا تتكلم .. لا تعطني عنوانك في بلدك ، ولا تعدني بمراسلتي ، ولا تسألني لقاء .. دعنا نظل غرباء كما نحن ، ليظل حبنا صافيا خاليا من المشاكل ، بعيدا عن زحام الحياة ..

***

وقفزت الى القطار وهو يتحرك ، وقد عادت الى عينيها نظرات حزينة أشبه بالغمام الذي يسبق موسم الأمطار ..

وصاح خلفها :

ـ ان ما تتحدثين عنه ليس هو الحب .. انه نزوة .. انه هروب !!

ولم تسمعه !!

الظروف

هل الحب يخضع للظروف ؟

اعنى .. هل يمكن أن تحب فتاة لشخصيتها المجردة ، أم ان الظروف المحيطة بها تتدخل في تحريك عواطفك الى أن ترتفع بها الى مرتبة الحب ؟

انه شاب مصرى سافر الى الهند ليعمل في محطة الاذاعة هناك .. وعاش في نيودلهى ، وسط مجتمع ضيق متزمت كاد يختنق فيه .. الى أن التقى بها .. فتاة ايرانية جاءت لتعمل في محطة الاذاعة أيضا .. وكان لها قصة .. قصة البحث عن الحرية ..

كانت من عائلة كبيرة وزوجوها ثم فرت من زوجها واجتازت الحدود وراء حريتها ..

ووجد فيها مالم يجد في بنات الهند .. كانت اجمل من بنات الهند ، واكثر تحررا من بنات الهند .. والتقيا عند هدف واحد الانطلاق ..

وانطلقا ..

أيقظا شوارع نيودلهى التى تنام في التاسعة مساء .. ايقظاها حتى الصباح ..

وسكبت روحها في روحه .. سكبت فيه الجرأة ، والتحدى ، والتمرد ..

واحبها .. وضحى فى سبيل حبها بكل شىء .. ضحى بأهله .. وبالمنصب الذى عرض عليه فى وزارة الخارجية .. وباستقراره !!

ثم اتفقا ان يسافرا الى باريس .. بحثا عن مزيد من الحرية والانطلاق ..

وسبقته الى هناك .. واستقال ولحق بها ..

وسارا فى شوارع باريس يشقان الليل وذراعها فى ذراعه كما تعودا ان يسيرا فى نيودلهى ..

***

ولكن احساسه تغير ..

انه لا يشعر بالجرأة والتحدى كما كان يشعر فى نيودلهى .. ان الشبان فى باريس كلهم يفعلون مثله .. لكل منهم فتاة ، وكل منهم يصحب فتاته حتى الصباح .. انه لا يشعر بانه مميز عنهم بشىء !!

ثم .. انها ليست اجمل من بنات باريس ، كما كانت اجمل من بنات الهند !!

وبعد شهر من وصولهما الى باريس طلبت منه الزواج .. وكان قد طلبه منها من قبل .. وهو فى الهند .. ولكنه ، هنا فى باريس .. رفض .. لم يعد يحبها .. لقد كان يحبها فى الهند لا فى باريس وانفصلا ..

وعاش فى باريس ثلاث سنوات لا يراها خلالها .. ثم عاد الى مصر ليستقر فيها .. عاد الى مجتمع ضيق متزمت اقرب الى مجتمع الهند .. وفجأة دهمته الذكريات .. ذكرياته مع الفتاة الايرانية التى رآها لأول مرة فى نيودلهى .. واحس انه يحبها من جديد !!

الدين

قالت وهى ترفع رأسها عن كتفه وتنظر اليه من وراء دموعها :

ــ اننا لا نستطيع ..

قال وهو يضغط على كلماته وكأنه يتحدى بها المجتمع كله :

ــ بل نستطيع .. سنتزوج .. اقسم لك بشبابك وشبابى .. سنتزوج !!

قالت :

ــ والدين .. ؟!

قال :

ــ انه ليس الدين .. لو كان محمد أو عيسى او موسى هنا لبارك زواجنا .. وليس الله .. انه رب المسيحيين والمسلمين .. كلنا من خلقه وكلنا من عباده .. وهو لا يفرق بين من يرفع اليه صلاته بالفرنسية أو الانجليزية او التركية .. انه الذى انطق خلقه بكل اللغات ، وهو الذى وزعهم بين كل الاديان .. وهو يحبهم جميعا ، ويحب أن يحب بعضهم بعضا ..

قالت وهى تتعذب فى حيرتها :

ــ سيفرقون بيننا ..

قال ثائرا :

ــ الشيوخ والقسس .. كل منهم يعز عليه أن يخسر تابعا من

أتباعه .. الشيخ يعز عليه أن تنقص قيمة النذور فى الجامع .. والقسيس يعز عليه أن تنقص نذور الكنيسة قرشا .. انهم ينظرون الينا كما ينظر الراعى الى بهائمه ؛ وكل منهما يعز عليه أن تهرب منه بهيمة وتنضم الى قطيع الآخر .. ولكننا – أنا وأنت – لسنا بهائم .. سنثبت لهم أننا لسنا بهائم .. سنثبت لهم أن الدين لا يجعل من الناس بهائم .. الدين ايمان .. والايمان فى قلبى وقلبك وليس بين يدى القسيس أو الشيخ .. وليكن ما بيننا وبين الله عامرا ؛ وما بيننا وبين القسس والمشايخ خراب !!

قالت وهى مبهورة الأنفاس :

– وأهلى وأهلك ؟ !

قال :

– انهم الماضى ، ونحن المستقبل .. ولا يبنى المستقبل الا الأقوياء الذين يتحدون الماضى .. وأنا وأنت أقوياء بحبنا ..

قالت فى تردد :

– ولكنى سمعت عن فتاة تزوجت من غير دينها ، وتعذبت .. الله عذبها !! ..

قال فى حدة :

– لا .. ليس الله .. الله لا يعذب الناس .. آلاف من الفتيات المسلمات تزوجن مسلمين وتعذبن ، والآف من الفتيات القبطيات تزوجن أقباطا وتعذبن .. تعذبن لأن الحب لم يرفق معهن ، ونحن معنا الحب ؛ ولن نتعذب ..

قالت فى ضعف :

– وماذا نفعل ؟ !

قال فى حزم :

– نهرب !!

قالت مستسلمة : – متى ؟!

قال كأنه يحكم القدر :

– غدا فى مثل هذه الساعة .. سنلتقى .. ونتحدى الناس !!

وانتظرها فى اليوم التالى ، ولم تأت !!

قتلوها ! ..

باقة زهور

مات زوجها فى اليوم الأول من معركة بور سعيد ..

وقد سمعت فى البيت بكاء خافتا ؛ ورأت فوق الوجوه دموعا ضائعة .. أما هى فلم تبك ولم تجد فى عينيها دموعا ؛ انما أحست بنوع من الغباء ..

لم تستطع أن تفهم لماذا مات ، ولا كيف مات .. لقد ودعته عندما خرج فى الصباح يحمل بندقيته ، دون أن يخطر لها خاطر الموت .. كانت تعلم أنه خرج ليؤدى واجبا نحو وطنه .. ليطرد الانجليز .. ولكن لماذا مات ؟ ان أخاها الكبير كان يخرج كثيرا ليؤدى واجب وطنه .. اشترك فى جميع المظاهرات والثورات التى كان يقوم بها الناس ، وكان يعود سالما .. فلماذا لم يعد زوجها ؟

وخرجت تبحث عن قبره ..

كانت تسير كأنها تعرف طريقها .. وكان الطريق أمان لا تسقط فيه قنابل الأعداء ولا تتجاوب بين جوانبه طلقات ..

واشفق عليها البعض ؛ ودلوها على قبر زوجها .. حفرة قريبة من الشاطئ ، غطيت برمال لا تزال هشة ؛ وحجر صغير عند أحد طرفيها ..

ونظرت الى القبر وركعت على ركبتيها وأخذت تسوى جوانب القبر بيديها .. وعدلت من وضع الحجر الصغير .. وتلفتت حولها

كأنها تبحث عن شيء .. ثم قامت واتجهت الى شارع فؤاد .. وسارت ذاهلة بين الرصاص .. ثم وصلت الى متنزه صغير ، فانحنت وقطفت بعض الحشائش والزهور التي خنقتها رائحة الحرب .. وعادت تسير ذاهلة .. ووضعت باقة الزهور فوق القبر .. واعتدلت ونظرت الى القبر من عل وبين شفتيها ابتسامة رضاء .. كأن القبر اصبح شيئا جميلا ..

ومن يومها .. تعود الفدائيون في شوارع بورسعيد أن يروا امرأة صغيرة تسير ذاهلة تحت القنابل والرصاص ، وبين يديها باقة زهر .. للذهب لتضعها على قبر زوجها ..

وكان يوم ..

وانتبهت المرأة من ذهولها وهي ترى أمامها — على بعد — جنديا بريطانيا مديرا ظهره لها وهو مختبيء وراء بقايا جدار منهار ، ومدفعه الرشاش مصوب الى الطريق .. وضمت باقة الزهر الى صدرها في قسوة .. واتسعت عيناها هلعا .. كأنها تخشى ان يختطفها منها هذا الرجل القابع وراء الجدار المنهار .. ووقفت حائرة جزعة .. ثم مدت قدمها تهم بالسير .. ولكنها عادت وسحبت قدمها كأنها أصيبت بلسعة نار .. انها تحس أن هذا الرجل يسد عليها الطريق .. لن يدعها تمر لتصل الى قبر زوجها ..

وتلفتت حولها في ارتباك كأنها تبحث عن أحد تستنجد به .. ولكنها لم تجد أحدا كلهم خلف الجدران المتهدمة يتبادلون اطلاق النار والحنت ووضعت باقة الورد على الأرض بجانب الجدار .. وضعتها برفق كأنها توسدها فراشا وثيرا آمنا .. ثم التقطت من الأرض بندقية ملقاة بجانب جثة شهيد .. وشدت قامتها واسندت البندقية الى كتفها ، وصوبتها الى الجندي البريطاني المختبيء خلف الجدار .. واطلقت !!

وانتفض الرجل وهو يصرخ صرخة مكتومة .. وارتفع في الهواء وقد انفتح في رأسه ينبوع من الدم .. ثم هوى قتيلا !! ..

وراقبته المرأة دون أن تهتز .. ثم اعادت البندقية الى جوار جثة الشهيد ، والتقطت باقة الورد ، وضمتها الى صدرها في حنان .. وسارت الى قبر زوجها ..

أبناؤنا

غارة نهارية ..

والأب الشاب يقف امام المرآة يرتدي لباسه العسكري ..

والام الصغيرة تقف بجانب زوجها تناوله له وهي تحتفظ بابتسامتها بين شفتيها ..

والابن الصبي ، في السادسة من عمره ، يقف في الشرفة يبحث بعينيه عن الطائرات المغيرة ، ثم يدخل الى الغرفة وهو يصيح :

— بابا .. انا حاجيب بندقيتي واضرب بيها طيارات الانجليز ..

ورأى الأب ابنه في المرآة ، وابتسم دون ان يرد عليه .. والتفتت الأم الى ابنها قائلة في حدة :

— اهدا يا حسام ، واقعد في حتتك .. ماتجننيش !

وجرى حسام .. ثم عاد وهو يحمل بندقيته الصغيرة ، وقد ارتسمت على وجهه البريء امارات الحزم والغضب ..

وصده والده عن دخول الشرفة وهو يقول له في حنو :

— بكره لما تكبر حتضربهم بمدفع مش ببندقية يبى ! ..

والحنى نقبله ..

ثم مال يقبل زوجته ..

وودعهما وخرج ..

وظل حسام واقفا مكانه وامارات الحزم والغضب لا تزال مرتسمة

على وجهه البريء .. ثم خرج الى الشرفة واخذ يبحث فى السماء عن الطائرات المغيرة وبندقيته الصغيرة مرتكزة على كتفه ومصوبة فى الهواء ..

انه يسمع صوت المدافع المضادة للطائرات .. ولكنه لا يرى الطائرات ..

وتسلل من البيت .. خرج دون ان تلمحه امه وهى واقفة فى المطبخ .. وسار فى شوارع مصر الجديدة ، وبندقيته فى يده ، والحزم والغضب على وجهه .. سار يتبع صوت طلقات المدافع المضادة للطائرات .. ولمح مدفعا من بعيد ..

واقترب منه .. وقبل أن يصل اليه لمح طائرة معادية فى السماء ، فرفع بندقيته الى كتفه .. واطلقها .. واطلقها مرة ثانية .. وثالثة .. والقت الطائرة قنابلها ..

وفى نفس الوقت انطلقت قذيفة من المدفع المضاد واصابت الطائرة ..

واحس حسام بشىء ينفرز فى لحمه .. وسقط على الارض وعيناه معلقتان فى السماء تتبع الطائرة الانجليزية فى سقوطها ..

وارتسمت على شفتيه ابتسامة واسعة .. كأنه ادى واجبه .. ثم لم يعد يدرى !

وفتح عينيه وهو راقد فى المستشفى ، ولمح وجه والده يطل عليه .. فابتسم فى اعياء وقال فى صوت خفيض :

ـ شفت يا بابا الطيارة اللى وقعتها .. ضربتها ببندقيتى !

وابتسم الوالد فى حنو قائلا :

ـ برافو يا حسام .. انت تستحق نيشان .. بكره لما تكبر حتوقع جيش بحاله ..

ونزع الاب احد الاوسمة التى تحلى صدره ، وعلقه على صدر ابنه وانفرجت اسارير الابن كلها كأنها اضيئت بالنور .. ثم نام

وانحنى الاب يقبله .. ثم انتصب واقفا وعلق مسدسه فى جنبه .. وذهب .. الى المعركة ..

وهمست الام :

ـ مع السلامة .. وربنا معاك ..

نهاية أب

لم تعد تستطيع ان تقول له : «لا» .. انها دائما تقول : نعم .. حاضر .. مهما تمادى ، ومهما كان فى أوامره من ظلم .. دائما : نعم .. وحاضر ! ..

وهى تذكر ايامها الاولى بعد ان تزوجته .. كانت فى السادسة عشرة ، وقد مضى اسبوع او اسبوعان وهو يدللها .. ويجيب رغباتها ، واحيانا كانت تقول له « لا » ..

ثم لا تدرى ماذا حدث لها بعد ذلك .. لقد تسلل الى شخصيتها فمحاها .. لم تعد لها شخصية فى البيت .. ولم يعد لها حق أمامه .. كل الحقوق اصبحت له .. وكل الواجبات أصبحت عليها !

وشيئا فشيئا كفت عن المقاومة .. لم تعد تطالب بحق ولم تعد تشكو من واجب ، اصبحت له انسانة ليس لها حياة وليس لها كيان ، انها تستمد حياتها وكيانها منه ومن وجوده .. اصبحت شيئا فى البيت .. وترهلت .. وضاع جمالها .. واصبحت نوعا من الخمول والغباء ..

وانجبت بنتين وولدا .. كان هو صاحب الكلمة عليهم ، وهو المتصرف فى شئونهم .. وعلمهم ان يخافوه كما تخافه ، ويطيعوه كما تطيعه ، وان يتنازلوا له عن كيانهم وحياتهم ..

وكبرت البنت وذهبت الى المدرسة .. ونالت الابتدائية ..

ودخلت المدرسة الثانوية .. وعادت يوما الى البيت ، فاستقبلها والدها صارخا :

— شيلى الشريطة الحمرا اللى انتى معلقاها فى راسك دى !

ووقفت الابنة ازاءه دهشة . وقالت فى براءة :

— ليه ؟!

وسكت الأب برهة كأنه تلقى سكينا .. وشعرت الأم كأن كارثة وقعت .. انها المرة الأولى التى تسمع فيها واحدا يراجع زوجها فى احد أوامره ..

ثم صرخ الأب كأنه أفاق :

— انتى بتعارضينى يابنته يا قليلة الادب .. باقولك شيلى الشريطة دى !

ونزعت الشريطة .. وهزت الفتاة كتفيها كأنها تهزأ منه

***

وعاد الأب يصمت .. ويحس بالسكين الذى القته اليه ابنته يتحرك فى صدره .. انه لم يسمع فى البيت كلمة « ليه » ابدا .. بل انه لم يكن يسأل نفسه مرة واحدة عن الاسباب التى يبنى عليها اوامره ..

وبدأ يسأل نفسه فى سره : « لماذا طلب من ابنته ان تنزع الشريطة من راسها » ؟ .. كان يسأل نفسه وكأنه يجرى عليها تجربة جديدة ..

ولم يجد جوابا .. واحس لاول مرة انه لم يكن على حق .. وكاد يشعر بانه ظالم جبار .. وبدأ فى قرارة نفسه يحس بالخوف .. الخوف من ابنته .. انها ستسأله دائما « ليه » .. ستطالبه بالاسباب .. ستناقشها ، وقد تنتصر عليه فى المناقشة ..

وكأنما اراد ان يستعيد ثقته بنفسه .. ان يثبت لنفسه ان أوامره لا تزال سارية على البيت كله .. لا ترد ولا تناقش .. فقام واتجه الى ابنته وصرخ فيها :

— سيبى المجلة اللى فى ايدك دى !!

فرفعت اليه عينين ساخرتين وقالت كأنها تشفق عليه :

— ليه ؟!

وتراجع الأب خطوتين ، ثم هجم على ابنته وانتزع المجلة من بين يديها .. فتركتها له وهى تبتسم .. وتكاد تضحك !

وفى هذه المرة لم تذعر الأم ، بل نظرت الى ابنتها فى اعجاب شديد .. كأنها تنظر الى بطلة .. الى فدائية .. واحست ان شخصيتها التى فقدتها قد استردتها فى ابنتها .. احست ان عمرها الطويل الذى قضته ذليلة تقول « نعم » ستستعيده قويا كريما فى عمر ابنتها .. لقد استطاعت ابنتها ان تقول « ليه » ؟.. وستقول غدا « لا » .. وستكرر « لا » الاف المرات .. وستسمعها هى .. ستسمع كلمة « لا » تدوى فى وجه زوجها الظالم الجبار .. وستراه يتراجع يوما بعد يوم .. ويفقد سيطرته شيئا فشيئا .. ستراه خائفا .. مستسلما ..

***

واحست الأم انها وجدت شيئا تعيش من اجله .. ان ترى زوجها وهو يواجه شخصية اخرى فى البيت غير شخصيته ..

وانحنت على ابنتها تقبلها .. كأنها تستنجد بها .. لتنتقم لها !!

شرف الجامعة

خطا الى داخل فناء الجامعة لأول مرة وهو ذاهل .. كان فى ذهنه خاطر واحد يملأ كل رأسه ؛ وهو انه بعد قليل سيجلس مع البنات فى مدرج واحد وربما على مقعد واحد .. وقد نشأ فى بلدته بأقاصى الصعيد وهو يعتبر البنات عورة يجب سترها .. ان امه لم تخرج من بيت ابيها الا الى بيت زوجها ؛ واخوته البنات حجزن فى البيت منذ بلغن السابعة من العمر ..

وهو لم يسأل نفسه أبدا لماذا يعتبر البنات عورة ؛ ولا لماذا حجزت امه وشقيقاته فى البيت ؛ ولا يدرى لماذا يدير رأسه كلما مرت به امرأة فى الطريق .. ولا لماذا يتنحنح ويهمهم كلما دخل بيتا من بيوت اقاربه او اصدقائه .. لا يدرى .. رغم ذلك فهو مستعد ان يقتل اخته لو اطلت من الشباك ؛ ويذبح امه لو حادثها رجل غريب ..

واليوم سيجلس مع البنات ــ مع العورات ــ .. دون ان يتنحنح او يقول : « يا ساتر » !!

ولم تكن المشكلة مشكلة البنات .. انما مشكلته هو .. انه يحس كأنه يتعرى من ملابسه امام الناس ..

ومضت الايام الاولى وهو منكس الرأس لا يرفعها الى واحدة من زميلاته ..

ورفع رأسه مرة والتقت عيناه بواحدة منهن .. والتقط صورتها فى نظرة واحدة ..

وظلت هذه الصورة تتارجح امام عينيه طوال النهار وطوال الليل .. ولم يكن يرى فى هذه الصورة واحدة من زميلاته ؛ بل رأى فيها صورة « بنت » .. بنت يستطيع أن يتزوجها او يغتصبها أو يضعها فى دوار بلدتهم !!

وبدأ يرفع رأسه اليها .. خلسة كلما وجد فى نفسه الشجاعة ليرفعه .. وبدأ يتمنى قتلها كلما وجدها تبتسم .. بدأ يتمنى صفعها كلما وجدها فى ثوب يكشف عن ذراعيها ..



كان يخيل اليه فى كل لفتة من لفتاتها انها تستهين بشرفه .. وبشرف الجامعة .. وبشرف القاهرة .. وبشرف مصر كلها ..

ولكنه قاوم نفسه .. قاومها طويلا .. الى ان رآها برفقة اعز اصدقائه .. وعرف ان صديقه يحبها وانه يلاقيها .. بل أن صديقه نفسه كان يأتى اليه ليسرد له التفاصيل ..

وكبت جرحه .. واخفى ثورته .. ووقف بجانب صديقه بدافع الشهامة والأخوة ..



ثم رآها مرة مع طالب آخر .. ولم يستطع أن يقاوم فى المرة الاخيرة .. احاطت به غمامة سوداء ؛ اندفع من خلالها نحو الطالب وانهال عليه ضربا .. ولم ينقذه من الموت الا بقية الطلبة ..

وقال الطلبة : ان ابن الصعيد ثار لشرف صديقه العزيز ..

اما هو فقد احس انه كان يفرج عن امنية تمتد جذورها فى اعماق نفسه : ان يقتل صديقه .. ويقتل البنت .. انتقاما لشرف الجامعة .. وشرف القاهرة .. وشرف مصر كلها .. وشرف بلدته فى اقاصى الصعيد .. !

لوحة العام

كان طالبا فى كلية الفنون . وكانت طالبة فى كلية الحقوق . وتحابا .. وعاشا فى الحب حتى انتهى كل منهما من دراسته ، واشتغل هو بالرسم واشتغلت هى بالمحاماة ..

ورغم ذلك لم يكن احدهما واثقا من انه يحب الآخر ..

كان كل مايعلمه هو ، انه يرى فيها لوحة فريدة حاول ان يرسمها عشرات المرات ، وفى كل مرة كان يرى فى رسمه شيئا ناقصا ..

وكانت كل ماتعلمه انه شخصية متمردة تحاول ان تخضعها فلا تستطيع ..

وفيما عدا ذلك كانا دائما على نقيض .. كانت حياته بلا نظام وبلا ترتيب ، وكانت حياتها منظمة مرتبة .. وكان لا يحسب حسابا لكسبه ، وكانت تسعى فى كل خطوة وراء قرش .. وكان يحاول ان يقبلها فى اى وقت وفى اى مكان .. فى مكتبها ، وفى المحكمة ، وفى الشارع .. وكانت لاتسمح له بتقبيلها الا فى الوقت المناسب والمكان المناسب

وجلس يوما يحاول ان يرسمها للمرة العشرين .. واغلق على نفسه الباب ومضى عليه يومان وهو امام لوحته وفرشاته فى يده ..

ثم القى الفرشاة ، ونظر الى اللوحة من بعيد ..

انها هى .. بكل خطوط وجهها وكل معالم شخصيتها .. العيون

الجريئة التى لا تدرى اين توجه جراتها ، والشفاه الحازمة العنيدة التى تخفى وراء حزمها ضعفا عاطفيا ، وتخفى وراء عنادها تهالكا واستسلاما ، والكتاب الضخم المفتوح بين يديها وعنوانه « قانون العقوبات » وعلى هوامشه رسم لقلب يخترقه سهم ، وبين صفحات وردة حمراء ذابلة ..



ونظر الى اللوحة مرة اخيرة ، واحس بالراحة .. الراحة من اللوحة ومن صاحبتها ..

وجاءت ترى اللوحة .. ورأت صورتها لا كما تراها امام المرآة ، بل كما تراها امام نفسها ، واحست هى الاخرى بالراحة .. احست انها استطاعت اخيرا ان تسيطر على شخصيته حتى فهمها واخضع لها فنه ..

وجلس بعد ان انصرفت يكتب لها ورقة صغيرة :

« عزيزتى .. لقد كنت لوحة انتهيت منها .. وانى مضطر ان ابحث عن لوحة اخرى يعيش بها فنى .. وداعا » !

وفى نفس الوقت كانت تجلس الى مكتبها تكتب له :

« عزيزى .. لقد كنت ابحث عما احبه فيك .. وقد اكتشفت اننا نحب فى الفنانين انتاجهم لا اشخاصهم .. لقد احببتك فى صورتى .. وقد انتهيت منها .. وداعا » ! !



ان الصورة معروضة الآن فى القاهرة .. وعنوانها « فتاة ١٩٥٦ » !! ..

أحلام الصغار

عندما كنا صغارا كنا نحلم ببنت السلطان او بنت المليونير ، التي تلقي بنفسها تحت اقدامنا ، فجأة بلا مقدمات وبلا سبب الا الاعجاب بشبابنا الغض ، ثم تصحبنا في سيارتها الفخمة الى قصرها لنقضي ليلة من ليالي هارون الرشيد وقد نعيش بعد ذلك في التبات والنبات ونخلف صبيانا وبنات ..

انه حلم طاف بخيال كل شاب سواء في يقظته او نومه .. وقد ظل دائما مجرد حلم !!

ولكن هذا الحلم تحقق اخيرا في حياة احد اصدقائي :

سافر الى اوربا منذ عامين ومعه سيارته الصغيرة .. والتقى بها في احدى حانات باريس ، وكل ما عرفه عنها انها سائحة امريكية ، وكل ما كان يبدو عليها انها موظفة في احدى الشركات او البنوك .. وتسعة اعشار السائحات الامريكيات من الطبقة المتوسطة .. طبقة الموظفات والمدرسات وناظرات المدارس !!

وكان كل منهما يسعى الى مغامرة عنيفة يسجل بها زيارته لباريس ، ويعيش في بلده على ذكراها .. وقد وجدت فيه حلما مثيرا من الشرق ، ووجد فيها حلما من الدنيا الجديدة ، وشرب كل منهما حلمه في كاسه حتى فاضت بهما الاحلام فانتقلا الى غرفته !

وتعددت بينهما الليالي ، حتى اصبحت ايامهما ليلا متصلا مثيرا عنيفا .. وانتفض امامها شرقيا بكل ما في الشرق من عناد ومن غيرة عمياء ومن قسوة ..

كان يملي عليها ارادته في كل كبيرة وصغيرة ، وكان يحرم عليها ابتساماتها التي كانت توجهها لكل الناس ، ويمنعها من ان ترقص مع غيره او ان ترفع الكلفة بينها وبين اصدقائها من اهل وطنها .. وكان يحاسبها كل ليلة على كل لفتة من لفتات عينيها ، وكل كلمة تخرج من شفتيها .. ثم يضربها .. ويضربها .. الى أن يرى دموعها بين عينيها فيجففها بقبلاته ويهدىء نشيجها بين احضانه ..

وقد احبته .. احبته في قسوته ، وفي غيرته ، وفي صفعات كفيه ، وعرفت انه لم يعد مجرد مغامرة ، بل اصبح قطعة من حياتها ..

واحبها بكل شبابه .. احبها حتى كره أن يعود الى وطنه ..



ولكنه كان يجب ان يعود ، فقد صرف كل ما معه من نقود في نصف المدة التي قدرها ، بل اضطر ان يستدين .. واضطر اخيرا أن يبيع بعض ثيابه ، وأن يرهن سيارته .. فقد كان ينفق عليها بغير حساب ..

ولم تعلم انه قرن العودة لافلاسه ، انما اقنعها بانه يعود ليتولى اعماله .. فسافر الى مصر بعد أن ترك سيارته في باريس ، وسافرت هي الى امريكا ، واتفقا على ان يلتقيا بعد ستة شهور في نفس الفندق ..

وعاد الى باريس يبحث عن قلبه ، وعن سيارته .. وقد عاد وهو لا يملك شيئا ، اذ كانت قيود تحويل النقد قد فرضت ..

ووجدها في انتظاره ..

وعاشا الليلة الاولى على خفقات قلبيهما لا يتكلمان ..

وقام في الصباح وهي تجذب عنه الغطاء وتصرخ مرحة :

ـ قم ايها المارد الكسول .. ستذهب الى نيس !

ومد كفه الضخمة وجذبها من شعرها الى احضانه ، وقال وهو يتكلم بين شفتيها ..

ـ لن نذهب الى نيس .. ولن نبقى فى هذا الفندق .. سننتقل الى اتفه وارخص فنادق باريس ، فالحقيقة التى يجب ان تعلميها انى لا املك شيئا هذه المرة ، لا املك حتى سيارتى !!

وضحكت .. ضحكت كثيرا حتى اغتاظ وظنها تضحك منه ، فاضطر ان يصفعها ليسكتها .. وتحملت الصفعة وهى لا تزال تضحك قائلة :

ـ لا تحمل هما يا حبيبى ..

وتركته ليدخل الحمام ، واتصلت هى بالتليفون ..

وخرجا سويا من الفندق ، فوجد امام الباب سيارة « كاديلاك » طراز ٥٢ فخمة مكشوفة ، وقف ينظر اليها فى اعجاب

قالت مبتسمة :

ـ هل تعجبك هذه السيارة ؟ ..

قال كانه يتنهد :

ـ جدا ..

***

وتقدمت نحو باب السيارة وفتحته ، وانحنت فى حركة تمثيلية قائلة :

ـ تفضل ..

وابتسم فى حسرة وقال وهو يحاول ان يضحك :

ـ دعى هذه السيارة .. فان رجل البوليس قادم ..

وقالت جادة :

ـ انها سيارتى !!

ولم يصدق ، ودار بينهما جدل طويل انتهى بان اخرجت له رخصة السيارة واسمها مسجل فوقها ..

وقال وهو فى شبه ذهول :

ـ حتى ولو كانت سيارتك ، فانى لا استطيع السفر الى نيس .. انا لا املك شيئا ..

وقالت وهى تتودد له :

ـ لقد دعوتنى طول اقامتى فى باريس المرة الماضية .. وانا ادعوك هذه المرة !

واخرجت من حقيبتها عددا ضخما من الدولارات وشيكات السياحة « ترافلرز شيك » ووضعته فى يده ..

ونظر الى اوراق النقد فى ذهول وكانه لا يصدق عينيه ، ثم تركها وخطا خطوات واسعة سريعة داخل الفندق ، ووقف امام المدير وصاح به :

ـ ماذا تعرف عن هذه السيدة ؟ ..

وابتسم المدير على الطريقة الفرنسية وقال وهو يغمز باحدى عينيه :

ـ كنت اظنك تعرفها منذ زمان طويل !

وصرخ كانه مجنون :

ـ ماذا تعرف عنها ؟

وقال المدير وهو يرتجف :

ـ انها امريكية .. وهى مليونيرة .. وهى من احسن زبائننا .. و ...

***

وتركه ، وعاد اليها ..

عاد فى خطى بطيئة وقد تدلى راسه فوق صدره كانه اصيب بنكبة ..

وسالته وهى تبتسم فى مرح :

ـ هل كنت تسأل عنى مدير الفندق ؟

قال وهو يحاول أن يبتسم ابتسامة مصطنعة :

ـ لماذا لم تقولى لى انك مليونيرة ؟

ـ انك لم تسالنى .. ثم .. هل يغير ذلك مما بيننا شيئا ؟

وقال وهو لا يستطيع ان يواجهها بعينيه :

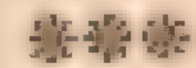
ـ لا .. مطلقا !!

وجلس فى مقعد القيادة ، وجلست بجانبه ، وقاد السيارة الفخمة فى شوارع باريس ، وهو يتذكر حلمه عندما كان صغيرا .. عندما كان يحلم مثلنا بالمليونيرة التى تلقى بنفسها تحت اقدامه وتضع ثروتها بين يديه .. لقد تحقق الحلم اخيرا .. انه يستطيع الآن ان يستولى على كل هذه الملايين ، يستطيع ان يمتلك هذه السيارة ،

وان يبتنى قصرا فى كل عاصمة ، وان يصرفه بلا حساب . . و . . و . .

ولكنه لم يحس لحلمه صدى فى قلبه . . احس ان هناك شيئا يضايقه كأن ياقة قميصه تكاد تخنقه ، او كأن حذاءه قد ضاق على قدمه ، واحس انه يقود هذه السيارة كأنه سائق اجير . .

ورغم ذلك فقد حاول أن يبدو طبيعيا . . ان يضحك ، وان يصيح ، وان يملى ارادته . . وطاف معها حانات باريس وشرب كثيرا ، اكثر مما تعود ان يشرب وكأنه يبحث فى كأسه عن شىء ضاع منه . .



وعندما عاد الى غرفته فى آخر الليل ، لم يستطع أن يحاسبها على نفقاتها كما تعود ، فقد شعر انه امام رئيسه فى المكتب وهو لم يتعود أن يحاسب رؤساءه . . وعندما حاول ان يضربها لم يستطع لانه لم يتعود أيضا أن يضرب رؤساءه

وعندما قبلها احس كأنه يصنع قبلته صنعا . .

وعندما اخذها بين ذراعيه احس انه يقوم بمهمة رسمية !

وسافر معها الى نيس ، واستأجرا هناك قصرا كانا يدعوان اليه كثيرا من الاصدقاء ، ويقيمان كثيرا من الحفلات الباذخة . . وكان المال لا يكاد ينفد من حافظته حتى تملأها له من جديد . . كان كل شىء بربلده بين يديه . . ولكنه كان يفقد كل يوم قطعة من شخصيته ، حتى عجز تماما عن السيطرة على نفسه ، فلم يعد يستطيع ان يسيطر عليها ، لم يعد يستطيع حتى ان يشعرها برجولته . . واصبح يكره ان ينفرد بها ، ويكره الليل . . فملأ ليله ونهاره بالناس حتى يحول وجودهم بينه وبين نفسه ، وبينه وبينها . .

اما هى فلم تتغير . . كل ما هنالك انها لم تعد تخفى ملابسها وثرائها العريض . .

. . كانت لا تزال تحبه ، ولا تزال تحن الى ضعفاته ، واعتبرت ان ما حدث له لا يعدو ان يكون ازمة نفسية لا تلبث ان تزول . .

بل انها اوحت الى احد اصدقائه ان يحدثه فى أمر زواجه بها . .

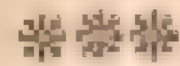
وقال له الصديق :

ـ لا تكن غبيا . . انه كنز فتح لك !

قال مترددا :

ـ لا استطيع . . احس انى اصبحت موظفا عندها !

ـ افرض يا سيدى . . هذا احسن من ان تكون موظفا فى الدرجة الخامسة !



ولم يهن عليه أن يترك الكنز يفلت منه ، ولم يهن عليه أن يحطم حلمه الذى راوده وهو صغير ، فقبل زواجها . . وذهبا الى السفارة الامريكية فى باريس فرفضت السفارة أن تعقد زواجهما لانها لاتعترف بالمغامرات ، فطارا الى جنيف ورفضت السفارة هناك ايضا ان تعقد زواجهما ، فطارا الى مدريد فقوبلا بالرفض . . واخيرا اضطرا ان يذهبا الى طنجة ، الميناء الدولى الافريقى الذى يعيش على التهريب، حتى تهريب الازواج والزوجات ، وهناك عثرا على رجل من رجال الدين عقد زواجهما طبقا للشريعة الاسلامية . . زواجا لا تعترف به امريكا !

وكانت ليلة الزفاف جحيما خرج منه منكس الراس . . كالموظف الذى لم يؤد واجبه !

وعرض عليها أن يطلقها وان يفترقا . . ولكنها رفضت ، فهى تحبه ، وهى تريده ، وهى تعلم انه يعانى ازمة نفسية ستمر ويعود اليها بعدها كما كان . . قويا . . شابا . . يصفعها ويملى ارادته عليها . .



واتفقت معه ان تسافر وحدها الى وطنها لتشرف على بعض اعمالها ، ، ثم يلتقيان بعد ثلاثة اشهر فى جنيف . .

وسافرت بعد أن امرت مصرفها فى جنيف بان يدفع له كل شهر الف دولار . .

وقبض الالف الاولى وبعثرها فى ليال صاخبة حمراء كان يخيل اليه خلالها انه ينتقم منها وينتقم من جميع بنات حواء . .

وقبض الألف الثانية . . ولكنه لم يستطع أن يستمر فى انتقامه

.. كانت تعذبه صورة اليوم الذى تعود فيه ، والليل الذى سيقضيه معها .. كان يعلم انه سيفقد شخصيته مرة ثانية ساعة ان يلتقى بها ، وسيعود كما كان موظفا لا يؤدي مهام وظيفته ..

***

وفجأة ، حزم حقائبه وعاد الى مصر دون أن يترك لها عنوانه ..

انه يجلس الان فى قهوة « كافيه ريش » بشارع سليمان ... يلعب الطاولة ويضحك ملء شدقيه ، ويفلس فى يوم ٢٥ من كل شهر

لقد عاد كما كان .. رجلا كاملا .. يملى ارادته ويصفع الفتيان، من هو ؟ ..

اسألوا زبائن مقهى « كافيه ريش » !!

غلطة

كان يوما عاديا جميلا ..

وكان الزوجان الشابان قد استكان احدهما الى الآخر ..

وفجأة دق جرس الباب ، واطل عامل فى احد محلات الزهور يحمل باقة من الورد الاحمر ..

واخذ الزوج الباقة وصرف العامل .. ثم قرأ البطاقة المرفقة : « الى السيدة حرم .. مع خالص الشكر » ثم لا توقيع ! ..

وعاد الى زوجته متسائلا ..

ولكن الزوجة بدت اشد حيرة منه ..

واستعرضا اسماء جميع الاصدقاء الذين يحتمل ان يرسل احدهم هذه الباقة ، فلم يصلا الى شيء ، ولم يعرفا مناسبة تقتضى ارسال الورود اليه او اليها ..

وقام الزوج وامسك بالتليفون واتصل بمحل بيع الزهور يسأله عن اسم المرسل ، ولكن المحل اعتذر عن ذكر الاسم ما دام صاحبه لم يذكره ، وليس هناك قانون يحتم على اصحاب محلات بيع الزهور تسجيل اسماء المشترين ..

وفى خلال كل ذلك كانت ابخرة الشك تتراحم فى راس الزوج واشتد ضغط البخار حتى حدث الانفجار ..

واذا بالزوج يتهم زوجته بالخيانة ، وبان لها عشيقا وقحا يلغ

من وقاحته أن يرسل لها الورد الأحمر الى منزل الزوجية ..

وأنكرت الزوجة .. وأقسمت على المصحف

ولكن الزوج لم يسترح .. وتوالت الأزمات .. حتى وقع الطلاق ! ..

***

كان هذا منذ ثلاث سنوات ..

وفى الاسبوع الماضى عاد أحد أصدقائى من الخارج بعد أن قضى ثلاث سنوات فى بعثة دراسية ، وسألنى عن الزوجين ، قلت :

ـ انفصلا ..

قال :

ـ خسارة .. لقد كنت أعتبرهما أسعد زوجين .. حتى انى أرسلت لهما باقة من الورد قبل سفرى ..

وكدنا ننتقل الى موضوع آخر ، ولكنى تذكرت حادث باقة الورد التى كانت سبب الطلاق ، فالتفت اليه وأنا أكاد أصرخ فى وجهه :

ـ لماذا أرسلت لهما باقة من الورد ؟ ! ..

وأجاب صديقى دهشا من صراخى :

ـ كانا قد دعيانى الى العشاء فى بيتهما قبل سفرى بشهر تقريبا ولم أتمكن من رد الدعوة ، فرأيت أن أعتذر بهذه الباقة ..

قلت :

ـ هل أرسلتها باسم الزوجة ؟ ..

قال فى براءة :

ـ طبعا ، فهذه هى الأصول .. أن ترسل الورود الى مضيفك باسم زوجته ..

قلت :

ـ هل كانت الباقة تضم وردا أحمر ؟

قال :

ـ أظن .. فقد كنا فى الصيف ، والورد الأحمر هو الغالب فى جميع محلات الزهور ..

وصرخت فى وجهه :

ـ لماذا لم توقع باسمك على البطاقة التى أرفقتها بالباقة ؟ ..

قال وهو لا يكذب :

ـ هل حدث هذا ؟ ربما .. فأنا كما تعلم كثير النسيان .. ولكن، لماذا تصرخ فى وجهى ، ولماذا تسألنى كأنك تحقق معى ؟ !

وضبطت أعصابى ، ولم أقل له شيئا ..

***

ولم أقل شيئا أيضا للزوج ولا للزوجة .. فلا أمل فى اصلاح ما حدث ، فقد تزوج الزوج من أخرى ، وتزوجت الزوجة من آخر ..

الطموح

القتاة الطموحة لا تستطيع أن تحب .. أن طموحها يغلف عواطفها وانوثتها حتى لا تعود تراهما أو تحس بهما .. وكلما اشتد طموحها بعدت عن عواطفها وانوثتها ..

وقد روت لى قصتها .. قصة فتاة فى السادسة عشرة من عمرها ، احبت .. وكان يمكن ان تسعد بحبها .. ولكن طموحها غلف هذا الحب بغلاف سميك فلم تعد تحس به ، وظنت انها تستطيع ان تستغنى عنه .. وسارت فى الطريق الطويل الذى اختارته لنفسها .. الطريق الذى لا ينتهى .. ولم يعد الرجال فى حياتها سوى درجات سلم تصعد عليه ، وبعضهم غذاء لابد منه .. الى أن وصلت .. او تعبت من كثرة الصعود فاستراحت على احدى القمم .. واسترخى طموحها ، وبدأ الغلاف السميك يتزاح عن عواطفها .. وعادت تحس بالحب .. نفس الرجل الذى احبته وهى فى السادسة عشرة .. وبدأت تتساءل : هل اخطأت عندما ضحت به فى سبيل طموحها .. وبدأت تحس بالندم .. تحس انها ضيعت عمرها فى سبيل اوهام .. ان كل ما وصلت اليه اوهام .. الشهرة والمال والنجاح ، كلها اوهام .. ان الحقيقة الوحيدة فى الحياة كلها ، هى : الحب !

وخرجت تبحث عنه .. نفس الفتى الذى ضيعته ووجدته فى

الثامنة والثلاثين من عمره .. قويا يافعا لا يزال فى مرح صباه .. وتقدمت اليه فى خطى مرتجفة وعيناها معلقتان بوجهه الاسمر ..

ونظر اليها كأنه يتذكر شيئا ، ثم قال :

ـ ياه .. مالك عجزت كده .. اللى يشوفك يقول عليكى اكبر منى !!

***

واحست كأنه طعنها .. انها فعلا تبدو عجوزا .. لقد امتص طموحها كل شبابها وكل حيويتها .. وتركها ثفلا كالبرتقالة المعصوصة !

وقالت له فى صوت مرتعش :

ـ حدثنى عن نفسك !

ولم يحدثها ، انما جذبها من يدها كأنها طفلة وسار بها الى بيته .. بيت متواضع ، ليس كبيتها .. ليس فيه تحف كريستال ولا مقاعد اوبيسون .. ولكن فيه ضحك ومرح وطيبة وحب .. زوجته تضحك ، واولاده يضحكون ، والمقاعد الخشبية تضحك ..

وقال لزوجته وهو يقدمها اليها :

ـ الا تعرفينها .. انها حبى الاول !

وقالت زوجته فى مرح :

ـ اهلا .. انا حبه الاخير !!

وعادت الى قصرها الانيق .. الى الوحشة والفراغ .. والندم !!

وعادت

كانت تبحث عن مائتي جنيه ..

انها فرنسية تعمل موظفة فى احد بنوك باريس ، واستطاعت ان تدخر مرتبها وتبيع شقتها التى كانت تقيم فيها ، ثم غادرت باريس فى رحلة حول العالم ..

وطافت بعدة عواصم الى ان وصلت الى القاهرة واقامت فى احد فنادقها ..

والتقت بشاب مصرى يعمل رساما .. كان يرسم ، ثم يبيع لوحاته باى ثمن .. وقد تمر به الشهور قبل ان يبيع لوحة واحدة .. كان فقيرا ، بوهيميا ، يقيم فى غرفة باحد الأحياء الوطنية لا تضم شيئا الا سريرا ، وادوات الرسم ، وعشرات من اشياء صغيرة ليس لها معنى الا فى راسه .. ولكنه كان جميلا ، ممشوقا ، واسع العينين ، يتدفق شبابا ومرحا ..

وعاشت معه حياته البوهيمية .. ولم تكن تتركه الا لحظات كل صباح ريثما تذهب الى الفندق وتبدل ثيابها ..

ومدت اقامتها فى مصر مرة بعد المرة .. ثم تنبهت فجاة الى امر من ادارة الجوازات بمغادرة الاراضى المصرية فى خلال خمسة عشر يوما .. وتنبهت الى انها قد انفقت نقودها كلها .. وانها لم تدفع بعد حساب الفندق ولم تشتر تذكرة الطائرة او الباخرة .. وانها فى

حاجة الى مائتى جنيه على الاقل !! ..

ولم تطلب منه شيئا ، فهى تعلم انه فقير .. انما ابلغته انها مضطرة الى العودة الى باريس واتفقت معه على ان يلحق بها بعد ان يدبر اجر السفر ..

***

وحددت له موعدا على انه موعد قيام الطائرة ، واتفقت معه على ان يصحبها حتى المطار .. وقبل هذا الموعد بليلة واحدة ارسلت اليه بطاقة مع رسول تقول له فيها انها اخطات فى تقدير موعد قيام الطائرة وانها اضطرت الى ان تغادر مصر قبل ان تودعه ..

ولكنها لم تغادر مصر بل بقيت تبحث فيها عن مائتى جنيه ! ..

واتبعت أقصر الطرق فى البحث .. فجلست فى بهو الفندق تراقب الرجال وبين شفتيها ابتسامة تدعوهم بها .. ولكن احدا لم يقبل الدعوة .. فقد كانت أجمل وارشق وانظف من ان يتصور رجل انها تدعوه ..

وخطت خطوة أخرى .. فتعمدت ان تصطدم بواحد من نزلاء الفندق .. ثم قالت له بصراحة : اين تذهب هذا المساء » !!

ودعاها الرجل ، وقضت المساء معه ، ثم قضت معه الليل كله .. واعتقدت انها ستقوم فى الصباح فتجده قد وضع فى حقيبتها مائة جنيه او خمسين جنيها على الاقل .. كانت تعتقد ان هذا هو الثمن فى مصر .. ولكنها لم تجد شيئا فى حقيبتها ، فان الرجل اعتقد انها من الهواة لا من المحترفات !

وخطت خطوة ثالثة فاصبحت تحدد الثمن مقدما .. ولم تستطع ان تصل الى ثمن اعلى من عشرة جنيهات .. ولجأت الى « البارمان » وعقدت معه اتفاقا صريحا .. واستغل « البارمان » نفوذه ورفع الثمن الى عشرين جنيها ..

وقضت أسبوعا فى شقاء .. شقاء روحها وشقاء جسدها .. ثم لم تعد تطيق فعادت اليه .. الى الشاب الذى احبته ..

واعترفت له بكل شيء !! ..

قالت له انها ارادت ان تعفيه من مسئوليتها .. وانها تعلم انه فنان رقيق وقد خافت على فنه ورقته من ان يزعجهما ضيقها ..

قالت له انها ضحت فى سبيل الحرص على ابعاد حبه ، فقد خشيت على هذا الحب من ان يتعكر ..



ولم يصفح ..

صفعها ، وطردها ..

ولم تكد تخرج حتى جمع كل لوحاته ورهنها عند عارض يهودى فى نظير مبلغ خمسين جنيها .. وطاف باهله واصدقائه وجمع منهم خمسين جنيها أخرى .. ثم وضع كل ما جمعه فى ظرف تركه لها فى الفندق ، دون ان يكتب لها كلمة او يوقع بامضائه ..

وعادت الى باريس ..

انها قصة واقعية .. حدثت فى القاهرة ..

وكل حجر فى القاهرة ، يتعلق بقصة لنا ..

أمريكية فى القاهرة

ان ابرز معالم شخصيتها .. الذكاء !!

واجمل ما فيها جبهتها العالية .. اعلى قليلا من جبهة العالم اينشتين !!

وقد تستطيع ان تنزع عينيك من فوق جبهتها العالية ، لترى عينين زرقاوين فى لون مياه البحر عند شاطىء مرسى مطروح .. وشفتين رقيقتين معبرتين لا تسكتان ابدا عن التدخين ولا عن الكلام .. وشعر ذهبى ناعم تتركه ينسدل فوق رأسها كقش القمح المبتل .. ولكن كل هذا لن يلهيك عن الجبهة العالية التى تشع ذكاء ..

هل اسعدها هذا الذكاء الحاد ؟ ! ..

انها امريكية جاءت الى القاهرة ضمن احدى هذه البعوث الكثيرة التى تتبادلها مصر والولايات المتحدة

جاءت وفى طيات صدرها قصة ، كانت فيها ضحية لذكائها الحاد ..

عرفت شابا وهى طالبة فى الجامعة .. شابا هادئا يخطو فى الحياة خطوات بطيئة ولكنها محكمة .. وكان يشتغل عاملا ميكانيكيا وفى الوقت نفسه يدرس القانون .. وكان زوجا وله ابن صغير .. كان سعيدا الى ان دخلت حياته ..

احبته .. وبهره ذكاؤها .. ثم استسلم لهذا الذكاء .. وفى وقت قصير وجد نفسه تحت سيطرتها الكاملة .. ولم تنقض شهور حتى طلق زوجته وترك ابنه وعاش معها .. ثم بدأ يفقد شخصيته امام ذكائها .. كانت هى التى تدبر له كل شىء وهى التى تقول كل راى . وانتهى به الامر الى ان ترك عمله وترك دراسته وعاش لها .. هى التى تعوله بذكائها ..

واصبح يقضى يومه جالسا فوق فرع شجرة يعزف « الاوكرديون » حتى اذا عادت نزل من فوق الشجرة واعطى نفسه لها ..

***

وفى احد الايام تركته فوق فرع الشجرة ، وذهبت الى عملها ، وكانت تقود فرقة تصوير تلتقط صور الناس فى الشوارع والحفلات وتبيعها لهم .. وعندما عادت لم تسمع انغام « الاوكرديون » تستقبلها من بعيد وتزفها اليه .. ولم تجده فوق فرع الشجرة ..

لقد فر ..

وعبثا حاولت ان تعثر عليه ..

وقضت شهورا تعيسة ثم غيرت مجرى حياتها ، وجاءت الى القاهرة ..

والتقت بشاب مصرى معروف يعمل فى احدى الشركات .. واحبته وبهره ذكاؤها .. وبدأ هذا الذكاء يفتح له ابوابا واسعة لطرق العيش ، فاستقال من الشركة التى يعمل بها واستسلم لها ..

ولم تمض ايام حتى وجد نفسه لا يعمل شيئا الا ان ينتظرها حتى تعود من عملها فيطوف معها شوارع القاهرة حتى الساعة الخامسة صباحا يستمع الى آرائها التى لا تنتهى كأنه تلميذ مطيع ..

ومضت شهور ، وعادت يوما من عملها فلم تجده ..

لقد فر ...

وقضت اياما تعيسة ، الى ان التقت بمصرى آخر ، لم يحبها ولكنه ارادها ، ولم يبهره ذكاؤها ولكن بهره جمالها .. كانت تتكلم فيبدو عليه انه لا يسمع شيئا ، وكانت تسرد آراءها فيبدو انه يسخر منها .. وكان يركز عينيه دائما فوق شفتيها .. الى ان وجدت نفسها بين احضانه وشفتيها ملكا له ..

***

وعاشت معه اسابيع .. عاشت امرأة بلا عقل .. فهو لا يريد ان يعترف ان لها عقلا ولا يريد ان يرى فيها سوى المرأة

وقالت له :

ـ انى انسانة مثلك !! ..

قال :

ـ انك امرأة .. وانا سيدك !! ..

وصرخت :

ـ انت مغرور .. انت حيوان .. انك مجموعة من مركبات النقص التى يعانى منها الشرق !! ..

ورفع يده الخشنة الثقيلة وصفعها ..

وسقطت على الارض تخور كالبقرة الذبيحة .. ثم اندفعت اليه واظافرها تبحث عن عنقه ..

وصفعها مرة ثانية .. ثم اخذها بين ذراعيه وامسكتها بشفتيه !!

وقام فى اليوم التالى فلم يجدها ..

لقد فرت ..

فرت لتعيش تتعذب بذكائها .. الذكاء الحاد الذى يشع من الجبهة العالية !! ..

ضحية أخرى

التقيت بضحية من ضحايا فاروق .. الملك السابق !! .. ضحية لم يسمع عنها أحد ..

كانت في السادسة عشرة من عمرها ، وكانت طالبة في مدرسة « الليسيه » بمصر الجديدة .. ولم تكن أجمل البنات ، ولكنها كانت تمتاز بحيوية دافقة ، فهي لا تهدأ أبدا ، ولا تكف عن المرح ، ولا عن تدبير « المقالب » البريئة للمدرسات والزميلات .. ان كل مكان تحل به تثير فيه ضجة !

ودعيت طالبات الفصول العليا بالمدرسة لقضاء أسبوع في قصر انشاص في ضيافة الملك .. وكانت هذه هي العادة كل عام .. ان يدعى القطاف الجديد من بنات الليسيه ليقوم فاروق بتدشينهن !

وقاد مسيو « كوميتون » — مدير مدارس الليسيه — بناته الى انشاص ، وكل منهن تحمل في حقيبتها أفخر ثيابها ، وأفخر ما تملكه من .. قمصان النوم !! ..

وانقضى الأسبوع والبنات يمرحن في رحاب الملك ، والملك يمرح في رحابهن .. كان يلعب معهن الاستغماية ، ويراقبهن وهن يسبحن في حمام السباحة كحوريات الاحلام ، ويتناول معهن وجبات الطعام .. ثم يختص واحدة أو اثنتين بعطفه الكريم !!.

واستطاعت خلال هذا الأسبوع ان تلفت نظر الملك بحيويتها

الدافقة التي لا تهدأ .. كانت أكثر البنات تجرؤا عليه ، وكانت أقلهن حرصا على التمسك بالبروتوكول في مخاطبته ، وكانت دائما تجعله يضحك ..



وفي احدى الامسيات أصابها أرق وخرجت الى الشرفة بعد ان نام الجميع .. ووقفت تستنشق الهواء وهي ترتدي لباس النوم .. قميص من الحرير ، وفوقه « روب » من الحرير ..

وفجأة احست بحفيف أنفاس تحيط بها .. واستدارت ، فاذا بعود ثقاب يشتعل امام وجهها وترى من خلفه وجه الملك ..

وذعرت لوهج عود الثقاب .. وترنحت من المفاجأة .. ثم سقطت فوق صدر فاروق !! ..

وضحك فاروق كثيرا كالأطفال ، لأنه استطاع ان يخيفها .. ثم جذبها من يدها ، وسارا في ممرات الحديقة يتحادثان ويتضاحكان .. والنسيم يدفع ثوبها الحريري الى الوراء فيبدو كأنه جناح ملاك .. جناح وردي .. ويلصق قميصها بجسدها فتبدو كتمثال لاحدى آلهة الرومان مسه الليل فدبت فيه الحياة ..

ولم يحدث بينهما اكثر من ذلك ..

حديث .. وضحك .. وخطوات في ممرات انشاص ..

وكان هذا كافيا لتبيت تحلم بالملك .. وبأن تكون ملكة !

وعادت من انشاص وقد تغيرت ..

لم تعد بريئة .. انما أصبح في رأسها أمل تحاول ان تحققه ، وخطة تسعى الى تنفيذها ..

واخذت « تتمحك » في كل من يمكنه ان يوصلها الى لقاء فاروق مرة ثانية .. أصبح حديثها كله عنه ، واحلامها كلها حوله ..

وانقضت شهور .. الى ان دعتها كريمة مليونير مصري معروف الى سهرة تقيمها في بيتها بالاسكندرية ..

وهناك التقت بفاروق مرة ثانية .. وتذكرها ، وخصها

باهتمامه طول الليل .. وتعمدت ان تحتفظ بمرحها وحيويتها الدافقة وان تتجرأ عليه وتتجاهل اصول البروتوكول .. ولكن مرحها هذه المرة لم يكن مطبوعا ، ولكنه كان مرحا مصنوعا ..



وربما لاحظ فاروق ذلك ، وربما لم يلاحظ .. ولكنه نسيها كما نسى كثيرات ، غيرها ولم تستطع أن تلتقى به مرة اخرى ..

ولكنها لم تنس أحلامها ..

ومضت سنوات قبل ان يستطيع اهلهـا ان يجبروها على الزواج من شاب كريم .. كان مفروضا يوما انها تحبه وان غاية آمالها ان تتزوجه .. ولكن الأحلام الكاذبة كانت قد قضت على الحب الصادق .. والآمال قد تغيرت .. الم يهتم بها يوما الملك ؟ الم تكن قريبة جدا من عرش مصر ؟ .. فكيف تستطيع أن تعيش مجرد زوجة لشاب مجهول ؟ ..

وطلقت من زوجها بعد عام واحد ..

واستطاع هذا الطلاق ان يزحزحها عن آمالها قليلا .. فان الملك كان قد تزوج من ناريمان ..

وبدأت تبحث عن زوج آخر ، ان لم يكن ملكا ، فعلى الاقل يستطيع أن يضمن لها حياة أقرب الى حياة الملوك ..

ووجدت هذا الزوج ..

شاب تافه فارغ .. ولكنه غنى ! ..

ودام هذا الزواج خمس سنوات .. قضتها فى كباريهات القاهرة ، وفى مصايف ومشاتى أوربا ، وفى رحلات الصيد ..

كانت تقوم من النوم فى الساعة الواحدة بعد الظهر ، وتتناول غداءها ، ثم تسلم نفسها للحلاق والخياطة و « المساجير » ثم تبدأ حياة الليل .. تماما كما كان يفعل فاروق .. وكأنها ملكة .

ولكنها لم تكن سعيدة ..

لانها لم تكن ملكة ..

كانت دماؤها قد تسممت .. وكانت نفسها قد تعقدت ..

فقدت طبيعتها وشخصيتها ، ثم تاهت وهى تبحث عن شخصية جديدة ..



لقد طلقت منذ ثلاثة شهور ..

وهى الآن تبكى ..

تبكى لانهـا لا تعلم اى نوع من الأزواج تريده .. فالاغنياء لا يسعدونها ، والفقراء لا تريدهم ، وقلبها لا يحب لانه جف منذ مـــــه الحلم الكاذب ! ..

ترى ، هل كان فاروق يدرى مدى جنايته على البنات ..

البنات اللاتى يذكرهن ، والبنات اللاتى ينساهن .. وبنات الليـــــه اللاتى كان يدعوهن الى انتشاص ؟ !

الضفائر السود

واذا نزلت الى البدروم ستري سيدة عجوزا تعزف على البيان بشارع سليمان باشا ستسمع انغاما موسيقية اسبانيولية تنبعث من بدروم الفندق .. من نفس المكان الذى كان يشغله ملهى « البوركية » في الشتاء الماضى ..

واذا نزلت الى البدروم سترى سيدة عجوزا تعزف على البيان ومعها آنسة تطرقع « بالكاستنيت » — اى الصاجات التى تستعملها الراقصات الاسبانيوليات — وتحاول ان ترقص ..

انها آنسة تتعلم الرقص الاسبانيولى ..

واسمها ماريا سانتاماريا ..

وقد رأيت ماريا في القاهرة منذ خمسة شهور ، ولفتت انتباهى كما لفتت انتباه كل من رآها ..

ان جمالها هادىء رقيق ، في رقته غموض مثير يدفعك الى التساؤل والى الالحاح في التساؤل !

وجه ابيض نحيل ، خال دائما من المساحيق ، وشفتان رقيقتان عاطفيتان ترتعشان دائما كأنهما تخافان ان تجرحهما لمسة،وعينان واسعتان سوادهما داكن جذاب يثير فيك الايمان بسهولة الوصول الى القمر .. ثم .. ضفيرتان طويلتان من الشعر الاسود الناعم تصلان حتى خصرها ، ويبدو وجهها بينهما كوجه طفلة بريئة ، او

كوجه عروس كبيرة في واجهة محل يبيع لعب الاطفال !! ..

ومنذ عامين وماريا تحمل في صدرها قلبا جريحا وتطوف به العالم ، الى ان استقرت في فندق سميراميس حيث تقيم منذ خمسة شهور ..



انها من عائلة اسبانيولية عريقة ثرية من اضخم عائلات برشلونة عراقة وثراء .. وقد عرفت هناك شابا احبها ومالت اليه ، وسألها الزواج فوافقت ، لا لانها تحبه ، ولكن لانه يصلح زوجا ولانها تميل اليه .. وكان والده يقيم في خارج اسبانيا حيث يشرف على اعماله الواسعة في المكسيك ، فلما عاد اخذها خطيبها ليقدمها اليه ، وما كادت تراه — ترى الوالد — حتى احست ان عمرها كله تجمع بين عينيه .. احست انها ارتبطت الى الابد بهذه الرجولة المكتملة المتشنة ، وهذا الصوت العريض الأجش ، وهذا الوجه الذى احرقته شمس المكسيك ، وهذه السوالف الطويلة التى يغطيها الشعر الابيض ..

وكانت صريحة في عواطفها .. ففسخت خطبتها بالابن واعطت نفسها للاب بلا وثيقة ..

وثارت عليها مجتمعات برشلونة .. والسنة الاسبانيات اقسى وامر من السنة المصريات .. واضطر الاب ان يفر بها الى المكسيك .. ولكن مجتمعات المكسيك ثارت عليهما ايضا .. ففرا الى الارجنتين .. ثم الى البرازيل .. ثم الى امريكا واوربا .. وقضيا ست سنوات يفران من بلد الى بلد ..

وكانا دائما يشعران بنقص كبير لا يستطيع حبهما ان يعوضهما عنه ..



لم يكن ينقصهما رغد العيش ، فالرجل واسع الثراء .. ولكن ينقصهما المجتمع الذى يعترف بهما ويحبهما ..

والاحساس بالانسانية لا يكتمل الا داخل المجموع .. وقد كان المجموع قاسيا عليهما ، يفتح لهما الابواب ولا يسمح لهما بالدخول، ويقدم لهما الكاس ولا يشاركهما فيها ..

وبدأ الرجل يتعب .. ووصل الى السن التى تحيل الحب الى ذكريات لا الى أمر واقع .. بدأ يحن الى المقعد المريح فى بيت برشلونه ، والى الزوجة العجوز التى لا تطلب من الحب سوى ذكراه ، والى أولاده والى احفاده ..



وكانت دائما تنتظر هذا اليوم .. اليوم الذي يتعب فيه منها ، فمنذ حل تركته ، وهامت فى العالم وحدها وقد اسدلت ضفائرها السوداء فوق صدرها كأنها تخفى بهما جرح قلبها ..

واخذت تبيع قطعة من حليها فى كل بلد تنزل فيه .. وباعت آخر قطعة فى مصر لتدفع حساب فندق مينا هاوس ..

وعندما سألتها : كيف تعيشين ؟ ! ..

اجابت : ان العيش أسهل من ان تفكر فيه !

انها لا تفكر كثيرا فى نفقات حياتها .. فكل شىء قد هان عليها .. ولكنها تفكر كثيرا فى ان تنسى حبها الكبير .. وقد شربت كثيرا من الخمر ، فلم تنس ، وانهكت جسدها النحيل فى ليال صاخبة فلم تنس .. ثم فكرت ان تتعلم الرقص لتعيش راقصة محترفة .. وعندما سمعت الالحان الراقصة ، وسمعت طرقات « الكاستنيت » بين يديها ، وضربت الارض بقدميها الصغيرتين .. نسيت حبها الكبير ! ..

واكتشفت ان احتراف الرقص ليس وسيلة للعيش ، ولكنه وسيلة للنسيان ! ..

قلت لها : ستعودين الى برشلونه يوما كراقصة كبيرة !

قالت : لا ابدا .. ان برشلونه تحتقر كل امرأة تحترف الرقص ، وانا لا اطيق احتقار برشلونة !

قلت : ان مصر ايضا تحتقر الراقصات !

قالت :

— ان برشلونة الهى واقسى .. ولكن سارقص عمرى كله لانسى كل شىء .. انسى حبى ، وانسى برشلونه !!

ادعوا لها بالنسيان ! !

قطرات العطر

كانت صبية ..

وكانت خادمة .. احدى الخادمات القلائل فى مصر اللاتى عملن فى بيت واحد اكثر من خمس سنوات ..

وكان ابرز صفاتها الامانة .. لم تسرق ابدا شيئا .. بل لم تخطر لها السرقة على بال !! ..

وقربتها امانتها من سيدة البيت .. فوضعتها فى مصاف افراد العائلة ، وتركت لها كل المفاتيح وكل البيت ..

وكبرت الصبية ، واصبحت شابة .. التهبت وجنتاها ، والتف عودها .. ولكنها لم تحس بشبابها وجمالها الا عندما عرفت سائق احدى سيارات الاجرة .. وازداد احساسها بالشباب والجمال عندما دعاها فى سيارته .. ثم اصبحت كلها شبابا وجمالا عندما احبته ..

ووقفت امام المرآة معجبة بنفسها ..

ثم اعتقدت ان هناك شيئا ينقصها .. شيئا يرضى حبيبها ، ويرضى شبابها وجمالها ..

ومدت يدها لتسرق هذا الشىء ..

كانت المرة الاولى التى تسرق فيها .. ولم تسرق سوى قطرات من زجاجة عطر تملكها سيدتها !! ..

ولم تكن تعتقد انها تسرق .. لم تحس انها ترتكب جريمة .. كل ما احسته انها تعطى لنفسها حقا طبيعيا فى التجمل لحبيبها ..



وقد احست بالنشوة التى يثيرها العطر فى اعصاب حبيبها ... فتعودت أن تسرق هذه القطرات، وتخفيها خلف اذنيها ، وفى طيات شعرها كلما ذهبت الى لقائه .. ولم تسرق شيئا آخر ابدا ..

الى أن لاحظت سيدة البيت تناقص زجاجة العطر وهو عطر غال تحرص عليه .. وترددت كثيرا قبل ان تفكر فى أن هناك من يسرق .. اتهمت نفسها بالافراط فى التعطر ، وحرصت على الا تسرفه .. ولكن الزجاجة ظلت تتناقص .. فوضعت فوقها علامة خفيفة لتتأكد من أن هناك سرقة ، قبل ان تبحث عن السارق ..

وهبط سطح العطر داخل الزجاجة عن العلامة التى وضعتها .. فاصبح الشك يقينا .. ولكنها ترددت مرة ثانية قبل ان تتهم الخادمة ، فقد كانت امانتها فوق الشك ..

ثم اضطرت ان تراقبها .. الى ان شمت رائحة العطر فى ثيابها .. فثارت واتهمتها بالسرقة ..

ولم تنكر الخادمة .. انما قالت فى سذاجة :

ــ اصلى باحب ريحته يا ستى !! ..

وصفعتها السيدة ، وصرخت :

ــ وكمان لك عين يا قليلة الادب .. يا حرامية

وذعرت الخادمة وهى تسمع لاول مرة انها « حرامية » .. تصورت السجن .. وتصورت المحاكمة .. وتصورت حبيبها يهجرها ..



وانتظرت الليل مع دموعها .. ثم جمعت ثيابها وهربت من البيت .. هربت الى حبيبها ..

وقبل أن تهرب سرقت زجاجة العطر كلها ..

وفى هذه المرة كانت تعلم انها تسرق .. وانها لصة !! ..

واستيقظت صاحبة البيت لتبحث عنها فلم تجدها .. وابلغت البوليس عنها .. ابلغته أنها لصة ..

وبحث البوليس عنها فلم يجدها ايضا .. ربما لم يهتم كثيرا بالبحث عنها .. فان زجاجة عطر لا تستحق اهتمام الدولة ..

ومضت شهور ، وجلست صاحبة البيت تروى لى القصة وهى نادمة .. فانها لم تجد بعد « نفيسة » خادمة اخرى فى مثل امانتها ونشاطها .. كانت نفيسة تسرق قطرات من العطر ، وكل من اتى بعدها حاول ان يسرق الحلى والنقود والثياب !! ..

قالت لى :

ــ ماذا كان يمكننى ان افعل ؟ ..

قلت :

ــ كان يمكنك ان تشترى لها زجاجة عطر وتهديها لها لتصونى امانتها وتحتفظى بها فى خدمتك !! ..

قالت :

ــ ما كانش ناقص الا ده كمان .. نشترى للخدامه بارفان .. وبكره الواحدة منهن تشتغل بماهيتها ، وباكلها ، وكسوتها ، والروج ، والبودره ، وشرابات النايلون !! ..

قلت :

ــ انت تنسى ان الخادمات من بنى الانسان .. بنات ككل البنات .. كبنت صاحبة البيت تماما .. انها تقس العواطف ونفس الانوثة .. من حقها ان تحب ، ومن حقها ان تتجمل ، ومن حقها ان تتعطر .. وقد لا تطمع الخادمة فى شراب نايلون .. لان حبيبها لن يقدره .. ولكنها تطمع على الأقل فى بضع قطرات من العطر ..

قالت :

ــ انت شيوعى !! ..

قلت :

ــ ليست هذه شيوعية .. ولكنها انسانية .. واكثر ما يخدم الشيوعية ان ينسب اليها كل راى انسانى !! ..

قالت :

ــ هل من الانسانية أن تطالب للخادمات بحق التعطر ؟ !! ..

قلت :

ــ ان الخادمات فى اوروبا وامريكا والبلاد المتمدينة يضعن الروج ويلبسن آخر المودات ؛ لان البلاد المتمدينة تعتبر الخادمة انسانة .. وفى مصر مربيات اجنبيات يصل مرتب الواحدة منهن الى خمسة وعشرين جنيها فى الشهر .. مرتب يتيح لهن ان يعشن كعاملات محترمات لا تقل حقوقهن عن حقوق صاحبات البيوت .. فلماذا تعامل الاجنبيات بمنطق ؛ وتعامل المصريات بمنطق آخر ؟ !

قالت :

ــ ابعد عنى قبل ان تسمم افكارى ..



وغضبت منى .. ولا تزال تعيش حتى اليوم تجرب كل اسبوع خادمة تسرق منها شيئا ..

وأين « نفيسة » الخادمة الامينة ! ..

لقد رآتها يوما صاحبة البيت .. رآتها على شاشة السينما فى احد ادوار الكمبارس ؛ وخيل اليها عندما رآتها ان دار السينما كلها امتلأت برائحة العطر .. نفس العطر الذى تستعمله .. واسمه : « اربيج » !! ..

أفراح الحرب

كانت مسيحية من سكان مصر الجديدة ؛ احبت مسلما .. وذهبت الى اهلها تعلمهم بحبها ؛ وتطلب الاذن بالزواج ..

وثار الاهل ؛ ورفضوا فى اصرار .. لا .. الف مرة لا .. الدين ؛ التقاليد ؛ المجتمع ؛ الفضيحة .. مستحيل .. لن تتزوجيه يا فتاة !!

وقالت لهم انها ستتعذب ان لم تتزوجه .. ستفقد قلبها وعقلها .. ستتحطم .. لن يكون لها حياة ..

وهز الجبابرة رؤوسهم فى عناد .. لن تتزوجيه .. ثم رفع الاب كفه الغليظة وهوى به على صدغها .. وصرخت الام فى وجهها كأنها تنفخ فيه نارها .. وسجنوها فى البيت ؛ لا تخرج الا فى حراسة أشقائها ..

وهو ايضا .. ذهب الى اهله يطلب ان يعاونوه على زواجه .. انه لا يزال طالبا فى السنة النهائية بالجامعة .. وهو يريد أن يأذنوا له بأن يأتى بعروسه الى البيت ؛ ليقيما فيه بضعة شهور الى أن يتخرج ويستقل ببيته .. ولكن لا .. مسيحية !! لا يمكن !

وصرخ الاب : لن تكون ابنى اذا تزوجتها ؛ حتى اذا تزوجتها بعد أن تتخرج !

وخبطت الام على صدرها كأنها فقدت ابنها ؛ وصاحت فى لوعة

كأنها تبكي : يا مصيبتي .. أقول إيه للناس !

وقال لهم أن النبي محمدا تزوج من مسيحية !

وانطلق صوت الأب كالبركان : انت لست النبي محمدا !!

ولم ييأسا ..

استطاعت الفتاة أن تهرب اليه ..

واستطاع أن يهرب اليها ..

وتزوجا .. واشتغلت الفتاة كعاملة «مانيكير» تطوف على البيوت تحمل بين شفتيها ابتسامة الحب ، وتحمل في يدها حقيبة صغيرة أنيقة تضع فيها أدوات تقليم الأظافر .. واشتغل هو مندوبا لاحدى شركات التأمين ، يطوف على أصدقائه يؤمن على حياتهم ، ويؤمنون حياته ..

واستأجرا غرفتين صغيرتين فوق سطح احدى العمارات الحديثة في نهاية ضاحية مصر الجديدة .. هناك بجانب المطار .. وملأ الغرفتين حبا ومرحا وشبابا .. كانت تعود من طوافها على البيوت لتطهو له طعامه ، وكان يعود ليستذكر دروسه استعدادا لدخول الامتحان .. وعندما تعتقد أنه ذاكر ما فيه الكفاية ، ترفع الوسادة الصغيرة بين يديها وتقذفها فوق رأسه .. فيهب يحاول أن يمسك بها .. وتجري منه ، ويجري وراءها .. ويسمع سكان الدور العلوي وقع خطوات مرحة تجري فوق السطح .. الى أن يمسك بها لاهثة ، ويريحها بين شفتيه في قبلة طويلة لا تنتهي الا في اليوم التالي ..

ولكنهما كانا أحيانا يصمتان فجأة ويتوقفان عن المرح ، وتعلو وجهيهما كآبة حزينة ، كأن غمامة سوداء قد مرت فوق رأسيهما .. ولم تكن في حياتهما مشاكل الا مشكلة واحدة .. أهلها وأهله .. وقد ترك تحديهما لأهليهما مرارة في نفسيهما ، تتفجر بين الحين والحين فتعلوهما هذه الكآبة ، ويحيطهما هذا الصمت .. وتشعر العروس بحنين جارف الى أمها حتى لو صرخت في وجهها ، والى أبيها حتى لو صفعها ، والى أشقائها ، والى البيت العريق الذي تفتحت عيناها فيه .. وكان يبادلها نفس الحنين الى أهله .. الى

أبيه ، والى أمه ، والى البيت العريق ..

ولم يكن الأهل قد استطاعوا شيئا حيال زواجهما الا أن يقاطعوهما ..

وارتدت أمها ملابس الحداد كأنها فقدت ابنتها ، ونكس أبوها رأسه كأنه لن يرفعها أبدا ..

وطرده أبوه من البيت ومنع عنه معونته ، وبكت أمه .. بكت كثيرا ..

ومرت الشهور بين الحب واللوعة ..

***

وذات يوم انطلقت ضجة من السماء .. ورفعت الأم رأسها من نافذة بيتها تبحث عن الضجيج .. وسمعت أزيز طائرات تمزق الفضاء .. ورأت أنوارا ساطعة تسقط .. وقصف مدافع .. ورائحة بارود .. وبقعا من الدخان معلقة في الفضاء .. ثم رأت ، هناك ناحية المطار ، ألسنة لهب .. حريقا كبيرا يصبغ الأفق بلون الدم ...

وصرخت في هلع :

— بنتي ..

ثم جرت نحو الباب وهي في ثياب البيت ، كالمجنونة ، تصرخ في كل خطوة : « بنتي ، بنتي » .. وجرى وراءها الأب .. هلعا هو الآخر .. صامتا في هلعه ..

وجرى الوالدان العجوزان من شارع الى شارع حتى وصلا الى العمارة الحديثة بجانب المطار .. وبحثا عن ابنتهما بين السكان المجتمعين عند الباب ، فلم يجداها .. وصعدا السلم الطويل .. صعدا في الظلام .. واقتحما غرفة ابنتهما .. وتوقفا قليلا .. رأياها في ضوء المصابيح التي تلقيها الطائرات .. جالسة تنتفض بين ذراعي زوجها ..

وصرخت العروس :

— ماما ..

ثم ارتمت فى احضـان امها .. لم تعد تنتفض .. لم تعد تسمع اصوات المدافع وأزيز الطائرات .. انها فقط فى احضـان امها ..

***

ووقف الاب والزوج قبالة بعضهما ، كل منهما حائر لا يدرى ماذا يقول .. ثم تنحنح الاب ، وقال كأنه ينفض عن نفسه قلقه على ابنته :

— اظن تيجوا تقعدوا عندنا احسن .. هناك امان اكتر !

وانحنى الزوج يقبل يد الاب ، وهو يتمتم :

— متشكر يا عمى ..

وتخلصت العروس من احضـان امها ، والقت بنفسها بين احضان ابيها .. ثم انشغلت فى اعـداد حقيبتها ، وكل ما فيها يضحك .. كأنها لن تكف ابدا عن الضحك .. انها ستعود الى البيت العريق .. الى ابيها وامها واشقائها ..

وقبيل ان يخرجوا سمعوا وقع اقدام مرتبكة تصعد السلم .. ثم ظهر القادم .. انه ابوه .. ابو الزوج ..

ووقف الاب الثانى ، ينظر الى وجوه العائلة المجتمعة دون ان يمد يده الى احد .. ثم قال قبل ان يسترد انفاسه من السلم الطويل :

— اتفضلوا .. كلنا حنروح عندنا فى المنيرة .. مصر الجديدة كلها اصبحت خطرة .. اتفضلوا .. العربية مستنية تحت !

وانحنى الابن يقبل يد ابيه ..

وخطت العروس خطوتين وهى تكاد تتعثر فى حيائها .. فمد لها حموها يده وجذبها اليه ، وطبع قبلة على جبينها ..

والتقت العيون .. والايدى .. والابتسامات ..

وعندما ركب الجميع فى السيارة ، همس ابو الزوج فى اذن عروس ابنه وهو يبتسم :

— مبروك .. أنا نسيت إباركلك .. كنت مشغول !!

ثم ارتفع صوته ، وهو يحادث ابنه فى لهجة الأب الحازم :

— أوعى تكون بطلت مذاكرة يا ولد !

واجاب الابن ضاحكا :

— ماتخافش يا بابا .. مراتى ماسكالى عصاية ..

***

ومروا على بيت اهل العروس ، فجمعوا باقى افـراد العائلة ، واعدوا حقائبهم ..

ثم ..

ثم عاشت العائلتان فى بيت واحد ، طول مدة الحرب ..

الأهلى والجزيرة

وقفت أمام مرآتها طويلا .. أطول مما تعودت : فقد كان يوما خطيرا فى حياتها .. انه اليوم الذى تذهب فيه الى نادى الجزيرة .. وقد قضت عمرا طويلا فى انتظار هذا اليوم

لقد كانت عضوة مع عائلتها فى النادى الاهلى ، ولكنها لم تكن عضوة فى نادى الجزيرة .. كانت تسمع عنه فقط ، وكانت تقرأ عنه فى صفحات المجتمع ، وكانت ترى صور عضواته .. كلهن جميلات .. وكلهن انيقات .. وأعضاؤه .. كلهم شباب ، وكلهم حياة ، وكلهم اغنياء .. انه نادى الطبقة الراقية .. الهاي لايف .. الطبقة التى خصها الله بالمتعة ، وبالزيجات الباهرة .. وباهتمام مصورى الصحف .. الطبقة التى تتطلع اليها !!

وهى لا تكره النادى الاهلى .. ولكنها لا تجد فيه شيئا جديدا .. لا تجد فيه خطوة الى الامام .. انها تحس فيه كأنها فى بيتها .. الحديث الذى تسمعه هو الذى تسمعه فى بيتها .. والبنات من حولها كبنات الجيران .. والفتيان ترى مثلهم مئات على محطات الترام .. انها تحس فيه بأنها فى نفس الطبقة التى نشأت فيها ، الطبقة الوسطى .. بكل تقاليدها الحائرة ، وبكل ما فيها من تردد وانفعال ..

واستطاع والدها أخيرا — وبعد طول انتظار — أن ينضم بأسرته الى نادى الجزيرة ..

والقت نظرة أخيرة على مرآتها ..

ورفعت ثوبها قليلا بيديها حتى يزداد ذيله اتساعا فوق « الجيبون » ثم ترددت قليلا قبل أن تخلع العقد الذى وضعته حول عنقها .. انه فالصو .. ولابد انهم فى نادى الجزيرة يحتقرون الحلى الفالصو

***

وخرجت .. قبل أن تلمح فى مرآتها بقية أخطائها .. لقد كانت تلبس حذاء ذا كعب عال جدا — ٧ سنتيمتر — لا يصلح ابدا للذهاب الى النادى فى النهار .. وكانت تضع كمية كبيرة من البودرة تكاد ذراتها تتطاير من حولها .. وصبغت شفتيها « بالروج » الفاقع جدا ، وكان يجب أن تصبغهما باللون الخفيف .. وكانت تصفيفة شعرها التى أعدها لها الكوافير فى الليلة السابقة لا تصلح الا للذهاب الى حفلة زفاف .. وكان ثوبها كله ليس فيه ما يتناسب مع حياة النوادى .. ولكنها لم تنتبه الى كل ذلك .. كانت تريد أن تضع على نفسها كل ما عندها ..

ووقفت بها السيارة أمام مبنى النادى .. ونزلت وهى تركز كل اهتمامها الى كل حركة من حركاتها .. ودخلت الى « الليدو » وهى تسير فوق كعب حذائها العالى كأنها عارضة أزياء .. ولم تتلفت حولها .. لم تنظر الى احد من الجالسين على الموائد .. خيل اليها أن الكل ينظرون اليها : فارتبكت .. وازداد ارتباكها فى كل خطوة .. ثم جلست على أقرب مائدة .. وجاء الجرسون .. ماذا تطلب .. لو كانت فى النادى الأهلى لطلبت سندوتش بالجبنة الرومى .. ولكنها ، هنا فى نادى الجزيرة .. لا يمكن أن تطلب ساندويتش بالجبنة الرومى .. ربما سخر منها الجرسون .. ربما اعتقدوا أن ليس فى بيتهم طعام .. وارتبك عقلها وهى تبحث عن شىء تطلبه .. وخيل اليها أن الجرسون بدأ يتململ من الانتظار .. فأسرعت ونطقت بلفظ « جلاس » .. اننا فى الشتاء فكيف تطلب « جلاس » .. ثم انها لا تحب « الجلاس » حتى فى الصيف ..

ولكنه كان اللفظ الوحيد « الشيك » الذى خطر على لسانها
ونهضت من جلستها .. ان « الجيبير » الذى تشده حول وسطها من تحت الثوب يكاد يقصم ظهرها .. والشمس بدأت تسهر راسها وتذيب « الكريم » من فوق وجهها .. واستجمعت شجاعتها ، وبدأت تختلس النظر حولها .. غريبة انها لا ترى احدا ممن تكتب عنهن الصحف .. ولكن هذه واحدة .. اميرة سابقة .. ووجدت نفسها تتحرك فى جلستها لتأخذ نفس الوضع الذى تجلس فيه الاميرة السابقة .. ثم بدأت تختلس النظر الى الآخرين ، واصطدمت بعينين تنظران اليها .. تنظران اليها فى تعمد .. وكان فى العينين ما يشبه السخرية .. وادارت راسها عنه بسرعة .. لماذا ينظر اليها ؟ ولماذا يسخر منها .. لابد ان فيها خطأ ما .. خطأ لا يصح ان يرتكب فى نادى الجزيرة .. واستعرضت فى ذهنها كل حالها .. شعرها ، وثوبها ، وجلستها ، وحركاتها ، وكأس الجلاس الموضوع امامها .. ولم تكتشف الخطأ .. وانتظرت فترة خيل اليها انها فترة طويلة ، وعادت تدير راسها اليه .. انه لا يزال ينظر اليها متعمدا .. بنفس النظرة الساخرة .. واشاحت عنه فى عصبية .. ولم تعد تستطيع الجلوس .. أصبحت تحس ان العينين الساخرتين تصهران قفاها .. فقامت ، وأخذت تسير فى أرض النادى كالتائهة .. لا تعرف الى اين ، ولا تعرف احدا .. وفجأة سمعت من خلفها صوتا ، يقول :

ــ ممنوع ..

ووقفت فى مكانها ، وارتعشت ركبتاها كأنها واقفة فوق حبل وتكاد تفقد اتزانها ..

ماذا حدث يا ربى .. اى قانون من قوانين النادى المقدس خالفته ؟!

واستدار لها صاحب الصوت .. انه هو .. صاحب العينين الساخرتين .. واستراحت ، كأنها تأمل ان يرحمها ، ويدارى خطأها ..

وقال وهو يبتسم :

ــ فعلا ممنوع .. دى ارض الكروكيه وعلشان تمشى عليها لازم تلبسى جزمة كاوتش !

وقالت وصوتها يتكسر فوق لسانها :

ــ انا آسفة .. ماكنتش اعرف !

قال كأنه لا يريدها ان تذهب :

ــ حضرتك عضوة جديدة ؟

واحست انه يهينها .. كأنه يتهمها بأنها محدثة نعمة .. وقالت وهى تحاول ان تتدعى عدم المبالاة :

ــ ايوه ..

وادارت راسها عنه ، ولكنه عاد يسألها :

ــ حضرتك عضوة فى النادى الاهلى ؟! ..

ونظرت اليه وقد بدأت تغضب .. ولكنه كان يبتسم ، وكانت ابتسامته حلوة .. وقالت فى صوت لا يخلو من حدة :

ــ عرفت ازاى ؟

قال فى هدوء :

ــ اصلى انا كمان من النادى الاهلى .. واول يوم جيت هنا كنت ملخوم زيك كده !!

قالت وقد ارتفع صوتها :

ــ من فضلك ، انا مش ملخومة .. هوه النادى ده اللى باين عليه دمه تقيل .. النادى الاهلى احسن ميت مرة !

قال وهو يضحك :

ــ ماتخافيش .. كلها يومين والاهلى كله يتحول على هنا .. متهيألى ان ما حدش حيفضل هناك الا بتوع الكوره وفكرى اباظه .. اصل النظام هنا احسن ، والخدمة احسن ، والملاعب احسن .. مافيش عيب هنا الا الفنزحة ، انما شويه شويه المتفنزحين يخفوا ويبجوا عليهم ناس زى حالاتى ..

قالت وكأنها تأسف :

ــ حضرتك مش متفنزح ؟!

قال فى بساطة :

ــ لا .. باقولك انا من النادى الاهلى .. تحبى تلعبى كروكيه !

قالت وهي تتنهد كأنها تندب حظها العاثر :
ــ ما أعرفش !!
ــ أعلمك !
واستسلمت .. فقد كان الاستسلام أحسن من أن تعود الى « الليدو » وتجلس وحدها تعاني تقاليد المتزوجة .. وخلعت حذاءها العالي ولبست حذاء من الكاوتش ، وبدأت تلعب ..
واحست بعد قليل انها تعود الى طبيعتها .. بدأت تضحك بملء فمها .. وتتكلم .. وتمرح .. ولم يكن يضايقها الا « الجيبير » الذي يضغط على خصرها !!

***

وعندما انتهت من اللعب ، صرخت في وجه أول جرسون قابلها :
ــ اديني واحد ساندويتش جبنه رومى .. وفيه حتة مخلل !!
وعادت في اليوم التالي الى نادي الجزيرة .. بلا زوج ، ولا بودرة ، ولا حذاء عال .. ولا « جيبير » !!

الحب والدبلوماسية

عام ١٩٥٠ ..
وهو موظف دبلوماسي في المفوضية المصرية ببلغراد .. شاب أنيق ، حلو التقاطيع ، فارع الطول .. يمثل الجمال المصري الارستقراطي .. وكان زميلا لنا في كلية الحقوق ، وكان أهم ما يدير رؤوسنا نحوه ، أناقته .. وارستقراطيته .. وهوايته للتصوير !
وقد ذهب الى مقر منصبه في بلغراد ، بعد أن ترك وراءه في القاهرة أملا ، ووعدا بالزواج ..
وكانت تقوم عدة عراقيل في سبيل اتمام هذا الزواج ، وكان يقاوم هذه العراقيل وهو في القاهرة ، وعندما انتقل الى يوغوسلافيا ظل يقاومها بالمراسلة ..
وعرف جميع زملائه في المفوضية المصرية مشكلته .. وكانت مثار حديثهم .. وكان بعضهم يعاونه عليها ..
ومضت الشهور والمشكلة لا تحل . والقاهرة تأبى عليه الزواج!
وفي خلال هذه الشهور ، كان قد عرفها ..
فتاة يوغوسلافية .. راقصة باليه في دار الاوبرا .. صغيرة القد ، جميلة .. هذا الجمال اليوغوسلافي الذي يجمع بين نصفي العالم .. لمسة من الشرق ، ولمسة من الغرب .. ويجمع تناقض الطبيعة في يوغوسلافيا نفسها .. فقر الجنوب ، ورخاء الشمال !!

واحبته ..
احبته بكل عمرها الذى قضته محرومة جائعة مع شعبها الذى يخوض بجلد عجيب حرب التحرير العتيقة القاسية ..
كان رى عمرها ..
كان الهدوء والسكينة والنعمة ، بعد الضجة والعنف والحرمان.
اما هو فقد احبها بقلب مشغول بغيرها .. او احبها بلا قلب ؛ لقد ترك قلبه فى القاهرة امانة الى ان يعود وفى يده المأذون .. احبها حب الغريب الوحيد ، الظمآن الذى يريد ان يبلل شفتيه ؛ الى حين يصل الى بلده فيرتوى
ولم تثر علاقتهما دهشة ولا تعليقا ..
غريب وراقصة .. امر لا يستدعى الدهشة ولا التعليق !!

***

وعاشت معه شهورا ، تخلع كل ليلة رداءها الغالى الذى تبدو به فى رقصاتها على مسرح الاوبرا ، ثم تضع رداءها المتواضع الذى تشاركه به شعبها فى تقشفه .. وتذهب اليه
لم تكن تعلم ان له املا فى القاهرة ..
ولم تكن تعلم انه يجدد كل يوم وعده بالزواج فى خطاب يرسله الى فتاة فى وطنه ..
الى ان افلحت المساعى ؛ وذللت العراقيل .. وتقرر ان يتزوج
وسعى اهله لدى وزارة الخارجية المصرية ؛ فمنحته اجازة ثلاثة اشهر يعود خلالها الى القاهرة لاتمام الزواج ..
ووصلت الى مفوضية مصر فى بلغراد برقية تحمل خبر منحه هذه الاجازة .. فجمع حقائبه فى نفس اليوم ، وحجز مكانا له على اول باخرة تغادر ميناء تريستا ، وكانت باخرة يوغوسلافية ..
وذهب ليقول لها وداعا ..
ربما قال لها انه استدعى فى مهمة خاصة عاجلة .. وربما قال لها انه لن يعود .. ولكن من المؤكد انه لم يقل لها انه عائد الى وطنه ليتزوج ..

وتركها وهى فى شبه ذهول .. وسافر من بلغراد الى تريستا ..
وكانت تريستا فى تلك الفترة – عام ١٩٥٠ – منطقة دولية يسيطر عليها نفوذ الامريكان والانجليز .. وكانت الحكومة اليوغوسلافية – والثورة الناجحة لا تزال فى طور التنظيم – تحرم تحريما صارما الانتقال من يوغوسلافيا الى تريستا ؛ بل الخروج من يوغوسلافيا كلها الا باذن خاص وفى مهمة رسمية ..

***

ووصل صاحبنا الى تريستا ..
وفى اليوم التالى صعد على ظهر المركب ..
وفجأة وجدها امامه ..
هى .. جاءت اليه !!
كيف جاءت ؟!
وفى فرحة اللقاء اخذت تقص عليه وهما على ظهر المركب كيف هربت من بلدها .. وكيف تخطت الحدود ، وكيف وصلت اليه ..
كانت تتكلم بصراحة ، وتروى كل التفاصيل فى صوت عال مرح كأنه موسيقى زفاف صاخب دون ان تحسب حساب شىء وكأنها وصلت الى شاطىء النجاة ..
وتحركت الباخرة .. قبل ان يجد وسيلة يقنعها بها ان تعود من حيث اتت ..
وخرجت الباخرة من ميناء تريستا الاقليمية .. ثم غيرت خط سيرها قليلا ودخلت فى المياه اليوغوسلافية الاقليمية .. ثم لدهشة الركاب اتجهت الى احدى الجزر اليوغوسلافية الصغيرة ورست هناك ..
وبعد فترة ؛ اقترب من الباخرة زورق يقل عددا من جنود البوليس اليوغوسلافيين وبعض الموظفين المدنيين .. وصعدوا جميعا الى ظهر الباخرة ، وبعد تبادل بضع كلمات مع القبطان القوا القبض على الفتى والفتاة ... !
على الشاب المصرى .. والراقصة اليوغوسلافية !!

وكان الخطأ الوحيد الذى ارتكبته الفتاة انها تكلمت بصوت مسموع فى فرحة لقائها بحبيبها .. وكان هناك من التقط كلامها ، ونقله باللاسلكي الى الدوائر المسئولة اليوغوسلافية فصدرت الاوامر الى الباخرة ـ وهى باخرة يوغوسلافية ـ بتغيير خط سيرها والاتجاه الى هذه الجزيرة ..

لو لم تتكلم الفتاة .. او لو لم تكن الباخرة يوغوسلافية .. لما حدث شيء !!

***

وانزلهما البوليس من الباخرة ..

وعندما بدأ التحقيق حاول الشاب ان يكون شهما . فقال ان الفتاة خطيبته ، وانه يصحبها معه الى القاهرة ليتزوجها ، وانه اضطر الى تهريبها .. و... و ..

ولكن المحقق لم يأبه به ..

وفى خلال التحقيق صدر الامر بالافراج عن الشاب ـ ربما مراعاة لصفته الدبلوماسية ـ واستمرار القبض على الفتاة ..

واضطر الشاب ان يعود الى تريستا ، بعد ان وجد ان باخرته قد ابحرت .. وظل هناك اياما مفلسا . الى ان اسعفه بعض زملائه من موظفى المفوضية .. فحجز لنفسه مكانا على باخرة اخرى ..

ونقلت الفتاة الى سجن بلغراد ..

واعادوا التحقيق معها اكثر من مرة ، وفى كل مرة تروى القصة كاملة .. قصة حبها .. ولكن احدا لا يصدقها ، فقد كانت الشبهات تتهمها بانها جاسوسة تعمل لحساب دولة اجنبية .. وكانت الظروف السياسية العادية التى تحيط بيوغوسلافيا تبيح مثل هذا الاتهام

وفى يوم ، طرق باب المفوضية المصرية ، موظف رسمي من وزارة الداخلية اليوغوسلافية وقابل الوزير المصري .. وروى له ما اسماه « بقضية الجاسوسة » وطلب ان تعاونه المفوضية بما لديها من معلومات ..

وارتبك الوزير .. فلم يكن يعلم شيئا عن الامر ..

وكان امرا خطيرا لم يحدث فى تاريخ الدبلوماسية المصرية من قبل !!

***

واستدعى الوزير احد موظفى المفوضية ، وبدأ يملى عليه برقية شفرية هامة .. هامة جدا جدا ..

وتوقف الموظف ـ وهو الان موظف كبير فى وزارة الخارجية ـ وبدأ يروى للوزير المفوض القصة بكاملها .. قصة الحب .. واشار على الوزير بدل اتخاذ الاجراءات الرسمية واثارة ضجة لا مبرر لها ، ان يطلب مقابلة وزير الخارجية اليوغوسلافية ، ويروى له القصة ، ويحاول انهاءها وديا ..

وذهب الوزير المفوض الى وزارة الخارجية اليوغوسلافية وروى القصة ..

وابلغت القصة الى الماريشال تيتو ..

وعفر تيتو قلوب الشباب ، وامر بالافراج عن الفتاة فورا ، ومنحها جواز سفر تغادر به الاراضى اليوغوسلافية وتلحق بحبيبها

وخرجت الفتاة من السجن ، وقد نسيت كل شيء الا أنها تستطيع اللحاق بحبيبها ..

وذهبت فورا الى المفوضية المصرية تطلب تأشيرة دخول الى مصر ..

ولكن ..

كيف يمنحها موظفو المفوضية تأشيرة الدخول الى مصر ، وهم يعلمون ان زميلهم يتزوج هناك .. ماذا سيحدث لو ذهبت الى القاهرة ؟! .. سترى حبها محطما ..

وربما حطمت معه مستقبل الشاب ..

وربما تحطم ايضا قلب عروسه التى يحبها ..

لن يسعد احد بذهابها الى القاهرة .. وخير لها وللجميع الا تذهب .. وخير لها ان تفقد املها فى المفوضية المصرية من ان تفقد

أمامها في حبها ..
واستقبلها موظف المفوضية استقبالا جافا . وألقى عليها محاضرة قاسية في المتاعب التي سببتها للحكومة المصرية وللمفوضية والوزير المفوض . ولجميع .. ثم صرخ فيها : إننا نمنعك من دخول مصر .. ونمنعك أيضا من دخول دار المفوضية !!

***

وعبثا حاولت أن تتوسل ..
وخرجت ذليلة كسيرة .. كأنها فقدت عمرها !!
ولم تدر رأسها لترى دموعا تلمع في عيني الموظف المصري ..
ولم تنته القصة عند هذا الحد ..
لم تطق الفتاة أن تبقى في بلدها فسافرت بجواز السفر الممنوح لها . إلى تريستا .. واستقرت هناك .. على شاطئ البحر .. تطل من بعيد على حبيبها ..
وكان الشاب المصري ـ وقد تزوج ـ يتتبع أخبارها . وكان يرسل لها نقودا مع كل من يسافر من زملائه وأصدقائه إلى تريستا ..
إلى أن جاءه الخبر الأخير عنها ..
لقد ماتت ..
ماتت بالسل ..

فهرس

صفحة

صفحة

قصص للمؤلف
تصدر عن دار الهلال

لا أنام ... ... قصة طويلة

❊ ❊ ❊

البنات والصيف ... ... مجموعة قصص

❊ ❊ ❊

فى بيتنا رجل ... ... قصة طويلة

❊ ❊ ❊

النظارة السوداء ... ... مجموعة قصص

❊ ❊ ❊

أين عمرى ؟ ... ... مجموعة قصص

❊ ❊ ❊

الطريق المسدود ... ... قصة طويلة

❊ ❊ ❊

أنا حرة ... ... قصة طويلة

❊ ❊ ❊

شفتاه ... ... مجموعة قصص

❊ ❊ ❊

بئر الحرمان ... ... مجموعة قصص

طبع بمطابع
مؤسسة دار الهلال